سلسلة شهادات سورية 5

# حكايات من هذا الزمن

دلير يوسف

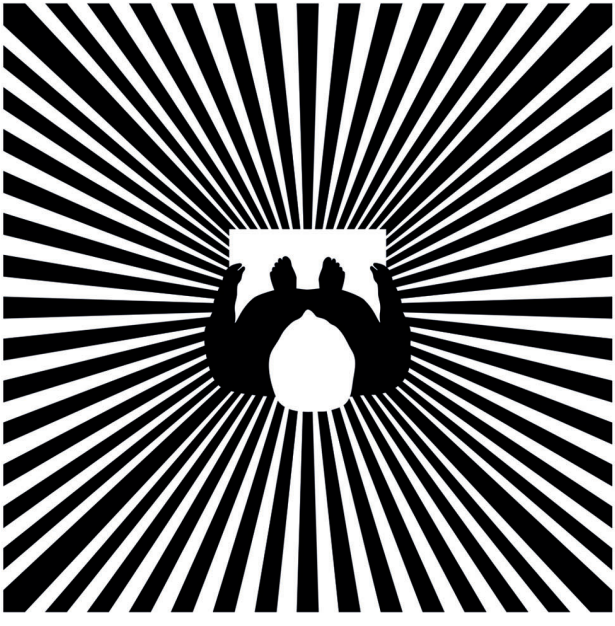

بيت المواطن
للنشر والتوزيع

# حكايات من هذا الزمن

دلير يوسف

# حكايات من هذا الزمن

سلسلة شهادات سورية -5- حكايات من هذا الزمن
دلير يوسف

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: أحمد علي
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2014

ISBN: 978-9953-583-44-0

**تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية**
**«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس**

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

**الناشر:**
**بيت المواطن للنشر والتوزيع**
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

**التوزيع:**
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

**الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.**

**الإهداء:**

إليهم...
إلى كل من ساعدني في أن أعيش وأشاهد هذه الحكايات.
إلى عائلات أصدقائي: مصعب ومحمد ورامي وعبد الحكيم.
إلى أصدقائي ممن ساعدوني في تنقلي بين المدن الكثيرة.
إلى أبي وأمي ومحبتهما التي لا تنتهي.
إلى أخويّ بشار وشيار، اللذين لولا دعمهما لما كنت أنا حيث أنا الآن.
وأولاً وآخراً إلى الثورة السورية التي ولدتنا بعد أن كنا في عداد الأموات.

**دلير**

كلما أصابني الصياد، ألتجئ إلى أوراقي كطائرٍ يحتمي في جذع شجرةٍ مهجورةٍ. أرمي كل ما أملك من مخزونٍ من الكلمات فوق هذه الأسطر الجافة، فأروي عطش أراضيها، وأركض نحو واحةٍ في صحراء فكري، فأرى بعض المياه تحاكي ظمئي.

أهربُ من وحدتي ومن عزلتي صوبَ هذا البياض الناصع كثلجٍ ثابتٍ طوال أشهر السنة فوق أحد الجبال، فأجد هناك غايتي.

لا منفى لي هنا سوى هذا المكان الفسيح حولي، ولكن، لي وطنٌ عظيمٌ يسكن في بضعِ وريقاتٍ هربنَ من دفترٍ أو من كتابٍ يتمشى فوق منضدتي.

أرقص فرحاً في كل مرةٍ أرى كلمةً جديدةً تنير دربي وأغنيتي. ينظمُ كل حرفٍ لي قصيدةً من وحي آلهةٍ تعانق سُحباً سجدتْ لزمانٍ ما عادَ ينفعُني.

أرى حولي كذباً يقفزُ هنا وهناك كلصٍّ يتربصُ بالشرفاتِ الخاليةِ ليحطَّ عليها. أبحث عن أمورٍ تُفرحني لأكتب عنها فلا أجد سوى حزني. صعبةٌ هي وحدتي.

أفتش في كل يومٍ عن عوالمَ جديدةٍ في كتبٍ ضمتها مكتبتي، فأرى العالمَ متشابهاً شرقه كغربهِ، فشمألتُ لكني وجدتُ الجنوبَ ينتظرُني هناك. لا مكانَ لجرذٍ إضافي لدينا.

أحاول أن أجد غايتي في لوحاتٍ عُلِّقت على جدارِ غرفتي فلا أتخيّلها إلا مسيحاً مصلوباً على جدار معبدي. قاتلةٌ هي عزلتي.

أهرب، أركض، أهرول، أصيح، أعجز عن الفهم، أندم، أبكي، أنادي أمي، أنام، أقرأ، أكتب، أنا، لا أنا، الآخر، لوحةٌ، كتابٌ، بياضٌ، وطنٌ، ملهىً، حكايةٌ، الأرضُ، السماءُ، الأزرقُ، البحرُ، الرمل، جسدُها، الحذاءُ، قدمي.

لا مكانَ لقدمي على هذه الأرض.

أتعب من نفسي وأملُّ، فأجرّب الموسيقا عساها تلتقط ما تبقّى من حُطامي، فترفض أن تطاوعَني وتستمر بالنحيب.

أعود إلى ذكرياتي فأبحث في رسائل عشيقاتي السابقات، فأجد منها ما يُضحكني ومنها ما يُدمعني، لكنها لا تنعى إليّ وفاةَ عزلتي. فلا تُفيدني ذاكرتي إلا ببعض دقائق الماضي التي أوصلتني إلى هنا. فكل تفصيلٍ من تفاصيل حياتنا السابقة أوصلنا إلى ماهيتنا الآن، وحاضرنا لا يخطط لمستقبلٍ يحمل أفراحاً تكلّلنا.

أظن أني سأعود إلى ورقتي الأولى لأكتب قصيدةً جديدةً بعنوان: «هذه هي حكايتي».

حكايتي هذه تبدأ من دمشق، فمنها خُلقت وإليها أعود. تحاكي مدناً أخرى لها ما لها من كلمات. أما دمشق فتبقى هي اللغة التي أشتقّ منها حكايتي. ولي في الطريق منها وإليها حكاية أحبّ أن أرويها:

ذات منفى قررت الذهاب إلى دمشق، اتبعت طرقات غير شرعية للوصول إليها وللخروج منها، كان لا بدّ من الذهاب. ربما كان الاشتياق لحبيبتي. اختلط الأمر عليّ بين حبيبتي الأنثى ودمشق، أيهما كان سبب الزيارة الخطرة هذه.

«هالدعسة خطرة»، «لا تشغّل ولا ضوولا حتى سيجارة»، «دير بالك من الكشافات»... وغيرها الكثير من الجمل التي اعتاد هؤلاء الشبان قولها، كل ليلة تقريباً، حين يقطعون الطريق الجبلي بين قريتين، إحداهما لبنانية والأخرى سورية. ينقلون معهم بعض الصحفيين أو الناشطين، وبعض الأدوية اللازمة للعلاج أحياناً وبعض الذخيرة لمجموعات مقاتلة مع الجيش الحر.

تبدأ الرحلة من إحدى القرى اللبنانية الحدودية المجاورة للشريط الحدودي السوري، نتفق على السعر مع أحد المهربين الذين رشحهم لنا أحد الأشخاص ممن نثق بهم «نسبياً»، وحين يهبط الظلام، يوصلنا «الرأس المدبر» إلى قرية أخرى نجهلها، وننتظر، بالقرب من الجبل، الإشارة.

ننطلق حوالي الساعة العاشرة ليلاً، معنا شخصٌ لحمايتنا وثلاثة آخرون يحملون ما يشبه الأكياس الكبيرة جداً فوق ظهورهم، مليئة

بالذخيرة. كلٌّ منهم يحمل بارودته الخاصة، إضافة إلى بعض القنابل اليدوية، تحسّباً لأي طارئ قد يواجهنا.

نمشي عبر الجبال، أشعر بأنني الوحيد من يعاني البرد القارس في تلك المرتفعات، تعوّدهم على ذلك ربما قد ساعدهم، وربما ثيابهم أو أحذيتهم، وربما سندويشات العسل والمربى التي يأكلونها حين يستريحون من المشي خلف أحد الحجارة الضخمة تساعدهم على الدفء. «السكريّات بتدّفي أستاذ» هذا ما قاله لي أحدهم بصوت منخفض جداً.

هؤلاء مهربون، يتقاضون أجوراً لقاء نقلهم ما ينقلون من بضائع أو أفراد، تختلف التسعيرة من شخص إلى آخر، ومن مادة إلى أخرى، ولا يجرون معاملاتهم إلا بالدولار الأمريكي.

وصلنا إلى الطرف السوري، استقبلنا بعض الرجال المسلحين، وأدخلونا إلى أحد البيوت شبه المهجورة، لم يسألنا أحدٌ منهم أيّ سؤال، ولم يوجّه أيٌّ منهم أيّ حديث لنا. انتقلنا إلى بيت أحد الأصدقاء ممن نعرف، حتى صباح اليوم التالي.

انتقلنا بإحدى السيارات الخاصة إلى النقطة الحدودية المعروفة بجديدة يابوس، وهو الطريق الرئيس بين دمشق وبيروت. استقللنا «مخاطرين» وسائل النقل العامة. توقفنا عند ثمانية حواجز للجيش النظامي قبل وصولنا إلى منطقة السومرية على الأطراف الغربية العاصمة، يفتشون السيارات ويدققون في الهويّات، يبحثون عن أناس من مناطق محددة، لا أشخاص معيّنين ولا قوائم مطلوبين معهم. إن كان عنوان سكنك على هويتك «السورية» هو دمشق تعبر بسلام غالباً، وإن كنت من مناطق كداريّا أو حمص، فستخضع لبعض الأسئلة في معظم الأحيان، قد تنتهي بالاعتقال أو الإفراج.

طريق العودة من الشام إلى لبنان كان مختلفاً كلياً. الغوطة محاصرة

كلياً، والعودة إلى دمشق شبه مستحيلة، النظام حاصر مدينة العتيبة وبدأ بقصفها، ثم سيطر على الطريق الواصل إلى الغوطة القادم من حمص، كما سيطر على العقدة الطرقية التي يستعملها «الثوار» والتي تربط طرقات الأردن وتركيا ولبنان والعراق مع بعضها والتي تصل إلى دمشق. انتظرنا ما يقارب الشهر، كل يوم نهمّ بالرحيل لكن الاشتباكات وأرتال النظام العسكرية الضخمة حالت دون ذلك.

أخيراً قرر «أبو مصعب» قائد المجموعة العسكرية التي سترافقنا إلى ريف حمص السير «على بركة الله». «إن شاء الله اليوم حنفتح طريق جديد!» قالها أبو مصعب على عجل وركب سيارته. كانت قافلتنا مؤلفة من سيارتين جيب فيها بعض قادة الكتائب، لا أعرف وجهتهم بالتحديد، سيارة بيك آب فيها شخصان من الواضح أنهما يعرفان طرقات الصحراء جيداً، دراجة نارية يقودها مستكشف الطريق، شاحنة نقل كبيرة فيها ما يقارب خمسين مسلحاً، سيارة بيك آب رُكِّب عليها رشاش دوشكا للحماية، شاحنتنا المليئة بالأدوية التي ستصل إلى حمص القديمة المحاصرة وأنا وأحد قادة الفيلق الأول، وأحد مرافقي القائد العسكري عبد الرزاق طلاس، كما قال لي، جلسنا فوق الأدوية في الخلف.

الطريق بين البلدتين في الحالة العادية يستغرق ساعة ونصف أو ساعتين على أبعد تقدير، لكنه استهلك معنا ما يقارب تسع ساعات ليلية طويلة. الطريق صحراوي، نمشي فوق الرمال التي تتطاير من حولنا تغطينا وتغطي سياراتنا وتبدو للناظر من بعيد كعاصفة رملية. البرد قارس جداً إلى درجة عدم قدرتنا على تحريك أطرافنا السفلية، يُمنع التدخين أو استعمال أي وسيلة من وسائل الاتصال، كما يُمنع تشغيل أي ضوء، لأن دبابات النظام ستقصف أي ضوء تراه وبالأخص إن كان متحركاً.

تسير سياراتُنا صاخبة في البادية السورية (أو الصحراء كما

يسميها أهالي تلك المناطق) على يمين أحد ألوية الجيش، ونبعد عنها بمسافة تقدّر بعدد من الكيلومترات، نسبة الأدرينالين في دمنا مرتفعة جداً مترافقة مع البرد القارس المتغلغل في عظامنا. ليلة أمس استشهد ثلاثون رجلاً عند محاولتهم اجتياز طريق قريب من هنا. نراقب بعضنا خائفين، لا نتحدث إلا فيما ندر، أضواء السيارات مطفأة. لا نور يتيح لنا أن نرى إلا نور القمر المكتمل في تلك الليلة، لا نستطيع أن نرى إلا لمئات الأمتار باستثناء الأضواء المنبعثة من قطع النظام العسكرية البعيدة.

وصلنا إلى إحدى قرى ريف حمص الجنوبي، الصبح قد طلع علينا، افترقنا عن المجموعة العسكرية بعد أن أرسلنا «أبو مصعب» إلى منزل أحد الأشخاص الذين يعرفهم، بقيت هناك ليلتين. قابلت الكثير من قادة الكتائب والجنود والمنشقين ممن لديهم اتجاهات مختلفة ومناطق مختلفة يذهبون إليها. اجتمعوا في ذلك المنزل الذي يملكه شخص يعمل في دعم الثورة والثوار من خلال فتح الطرقات واسستكشافها دون مقابل مادي.

أرسلوني مع مجموعة أخرى بعد ثلاثة أيام إلى إحدى البلدات في جبال القلمون، هذه المجموعة هي الأخرى مهمتها نقل الأشخاص والأسلحة بين المناطق دون مقابل. عبرنا الطريق الوعرة بين الجبال دون إضاءة، وفي البرد القارس مشينا مسافة أربع ساعات، وصلنا بعدها إلى مقصدنا في القلمون.

في الطريق، بالقرب من موقع تمركز إحدى كتائب النظام، ظهر لنا في الظلام أربعة مسلحين يتقدمون صوبنا، ظنّنا في البداية أنه كمين نصبه جيش النظام، لكن، بعد أن حاصر الرجال المسلحون الذين كنت أرافقهم هؤلاء الأربعة، اتضح أنهم منشقون عن تلك الكتيبة القريبة ولا يعرفون إلى أين يتجهون. رافقونا في وجهتنا على أن يرسلوهم إلى حيث

يريدون، بعد تسليمهم إلى أحد المجالس العسكرية التابعة للجيش الحر في المنطقة.

وصلنا إلى القلمون في منتصف الليل، اتجه كل فرد إلى المكان الذي يريد، أرسلوني مع أحد المهربين ممن يتعاونون مع مجموعات من الجيش الحر. عبرنا الجبال الفاصلة بين لبنان وسورية في سيارة تحمل عبوات مختلفة الأحجام والأشكال تحتوي على مادة المازوت، جلست فوقها. وخلال ساعة واحدة من الزمن عبرنا فيها الجبال الوعرة وصلنا إلى إحدى القرى اللبنانية.

في دمشق تسمو المشاعر أكثر، كل شيءٍ في الشام أجمل. دمشق تلك المدينة التي تتغيّر تفاصيلها كل يوم على وقع الحرب والنزوح والجمال. لي حكاية فيها رويتها ذات نهار، فقلت:

الكهرباء منقطعة منذ ساعات، الجوّ بارد جداً، نجتمع حول مدفأة تعمل للمرة الأولى في أواخر هذا الشتاء (لقد أمكن تأمين المازوت بصعوبة منذ أيام قليلة)، نتحدث عن الخبز واستحالة الحصول عليه، وفي الخلفية أصواتٌ لراجمات الصواريخ والمدافع تقصف مناطق قريبة.

أهلاً بك في دمشق.

بدأت رحلتي إلى دمشق في بداية شهر شباط (فبراير) من عام 2013، بحثاً عن الحقيقة وعن ذاتي في قلب النار والموت. وصلت إلى المدينة بعد أن اجتزت طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر مشياً على الأقدام في كثيرٍ من الأحيان. انتقلت خلال هذه الرحلة بين مناطق في قلب العاصمة يسيطر عليها النظام السوري، ومناطق أخرى يسيطر عليها الجيش الحر في ريف دمشق وغوطتها، عشت في الكثير من البيوت نظراً لرغبتي في معرفة تفاصيل أكثر، وبهدف التخفي عن أعين جواسيس الفروع الأمنية.

كانت معظم أحاديث العائلات التي استضافتني تدور حول الأحداث الجارية على الأرض والأوضاع المعيشية، كنقص الخبز الدائم وفقدان مواد الوقود كالبنزين والمازوت والانقطاع الدائم للتيار الكهربائي، كما كانت النقاشات تدور حول مناطق النزوح المحتملة في حال تعرضت

هذه المنطقة للقصف أو تجددت الاشتباكات فيها. لكن وعلى رغم كل ما يعانيه السوريون فَهُم يحاولون التكيّف مع كل ظروف الحياة، بما فيها نقص المياه وانقطاعها في أغلب فترات اليوم، فتراهم مثلاً قد وضعوا خزان ماء كبيراً في «الحارة» ومُدّ إليه أي شيء يمكنه نقل الماء من الصنبور إلى الخزان ليمتلئ كلما أوصلت الحكومة مياه الشرب إلى المنطقة، وبهذا يضمن السكان بقاء مقدار كاف من الماء لديهم ليومين على الأقل. هذا المشهد ستراه في معظم أحياء الغوطة الشرقية. وربما كان من أشد المشاهد غرابة لي هو تدخين «النرجيلة» في كل مكان، من قبل المدنيين أو من قبل أفراد الجيش الحر (الذين يطلق عليهم المدنيون صفة «ثوار»)، واستعمال الإنترنت كوسيلة اتصال هو شيء منتشر بكثرة، وبخاصة موقعي الفايسبوك والسكايب.

أمورٌ كثيرة أخرى من الممكن أن تلاحظها وأنت تجوب في شوارع دمشق وريفها، كانتشار النازحين واللاجئين من المناطق الخطرة إلى المناطق الآمنة نسبياً؛ كبعض المدارس في قلب مدينة دمشق، أو في خيم تفرش أرض المزارع في الغوطة الشرقية. وهي من أشد المشاهد إيلاماً حين ترى طفلاً يشرب من ماءٍ مخصص للأبقار، أو ترى عائلة تأكل طعاماً والخراف تجوب من حولهم، ذلك أنهم يعيشون في حظيرة للحيوانات هرباً من قصف عنيف على منطقة جوبر شرق العاصمة.

غير بعيد عن الغوطة تصعد إلى باص يصل مركز المدينة بمنطقة تشكّل مركزاً سكنياً لضباط وعناصر من الجيش السوري، فتسمع السائق يقول: «فليفتش كلٌّ منكم في أغراض الآخر»، وهو دليل واضح على خوف هؤلاء حتى من أنفسهم، فيبحثون عن أي عبوات ناسفة أو متفجرات في أغراض كل منهم.

مشهدٌ آخر قد تقابله في قلب دمشق، وذلك في يوم مثلج، حيث ترى «اللجان الشعبية» التي شكّلها النظام لحمايته وليبدي للعالم دعم

المدنيين له، تراهم يلعبون بالثلج لعبة «الجيش الحر وجيش الأسد»، وهو أمر غريب أن يعترف هؤلاء في ما بينهم بوجود جيشٍ حر وينكرون وجوده على العلن ويصفونه بالجماعات الإرهابية.

تتجول في غوطة دمشق فتستمتع بحريتك كما تريد (طبعاً إذا ما استثنينا قصف الطائرات وراجمات الصواريخ) تغني وتصرخ وتشتم الرئيس وتتظاهر وترفع الشعارات التي تحب، وحين تكون النار تهبط عليك من السماء لن تجد صعوبة في إيجاد إحدى السهرات الثورية في مكان أكثر أماناً، يغني فيها «الثوار» أغنياتهم ويرددون شعاراتهم الثورية بصوت عالٍ من دون خوف. لكن في أثناء تجوالك، ستلاقي، بلا شك، الكثير من الصواريخ غير المتفجرة والمغروسة في الأرض، يبتعد الناس عن تحريكها خوفاً من أن تنفجر بينهم. لكن الأمر الأكثر دهشة الذي لاحظته هناك هو بيع المشتقات النفطية في شوارع البلدات المتناثرة في الغوطة، فقد عُبّئَ البنزين والمازوت والكاز في قوارير تباع باللتر الواحد أو اللترين، وذلك لغلاء ثمنها ولصعوبة الحصول عليها.

عشت في بعض بيوت المدنيين ممن هجروا بيوتهم ونزحوا إلى مناطق أخرى، نمتُ على أسرّتهم، وجلست فوق كراسيهم، واستعملت أوانيهم للأكل، عشت مع صورهم ومذكراتهم، عشت مع أناس لم أعرفهم شخصياً لكنني أحسب بأنني أعرفهم جيداً الآن، وقد نقلت إلى دفتر ملاحظاتي أحد المقاطع من دفتر مذكرات أحدهم، الذي تبيّن لي أنه شابٌ جامعي قد فارقته حبيبته منذ زمنٍ ليس ببعيد:

«مرة أخرى أجلس وحيداً في هذا المكان المزدحم وحيداً أزاحم صورتك المعلّقة في خيالي. أحاول الضغط على زر الاتصال لكن يداي تخوناننني. أناديكِ في سري وأتحدث عنكِ في العلن، مع علمي بأنني لن أطولكِ بعد اليوم. أشتاقكِ، وكم أود أن أضمّكِ إليّ. أتعب من خيالي،

فأغنّي وأضحك، لكن الموت هنا في قلبي قد عشعش. أناجيكِ كل لحظةٍ، لا تردّين. الآن أشعر بأن شيئاً ما في داخلي ينتحر أو بالأحرى يموت بفعل ضرباتك».

هناك في ذلك المكان الذي ينظر إليه العالم على أنه مكان لحرب أهلية، ليس كما يعيشه أهله كثورة، في ذلك المكان تتوجه الأنظار ونشرات الأخبار ومقالات الصحف إلى الصواريخ والطائرات والرصاص والموت، لكن لا أحد يلتفت إلى تفاصيل الحياة الصغيرة، إلى كيفية الحصول على الخبز، أو إلى الأطفال وذهابهم إلى مدارسهم (أو ما شابه) كل صباح، لا يرى العالم اليوم ضحكات «الثوار» ورقصاتهم. لا يلتفت أحد إلى شاب فقد حبيبته، أو إلى حبيبة تشتاق إلى حبيبها، لكنهما لا يلتقيان لأن الرصاص كثيف عند مفترق الطريق إلى بيتها. هناك فقط، في سورية تستطيع سماع لحن الأمل ينبعث من الموت، هناك فقط ترى أحدهم يموت من أجل أن يعيش غيره، هناك في سورية ترى هذه العبارة مكتوبة على كل الجدران: «اخلع نعليك وأنت تدوس ترابها، فتراب سورية من رفات شبابها».

قصص دمشق وحكاياها لا تنتهي، في كل حجر من حجارتها رواية يستطيع الراوي أن يرويها لمستمعيه دون أن يملّوا أو يكلّوا. قال الراوي:

حدث في دوما، تلك المدينة النائمة على أطراف العاصمة دمشق، أنّ شاباً خرج من بيته صباحاً مرتدياً أجمل ثيابه ليشارك مع أهله وأصدقائه وجيرانه في عرس الحرية الذي يسمى مظاهرة، وصل وبدأ الغناء وكان يقطُر حماساً، بدأ إطلاق النار بعد فترة من الزمن، تفرّق الناس في الشوارع الجانبية، ابتعد عن أهله، الشارع يفصل بينهم، لا يستطيع العبور فقد زرعوا القناصة على الأسطح.

قرر العبور، نصحوه بعدم فعل ذلك، لكنه أصرّ، قال: بقفزة واحدة سأكون هناك، لن يهزم موتهم حياتي. ركض بسرعة البرق وصل إلى منتصف الطريق وسقط. كانت الرصاصة أسرع.

استمرت الحياة، مات الفتى لكن الحياة في دوما استمرت. تفرّق الناس وكلٌّ إلى بيته أو مخبئه إلا ذلك المسؤول الصغير في تلك البلدة الذي توجه إلى مجموعة من المسعفين والأطباء، طلب منهم أن يرافقوه، لجلب جثة امرأة من لدى حاجز للجيش السوري هناك. قال بأن الجثة نائمة هناك منذ يومين على الأقل.

عبرت سيارة المسعفين الشوارع مسرعة متجهة نحو ذاك الحاجز اللعين. وصلوا وقد كانت أفواه البنادق مصوبة نحوهم. لم يقبلوا تسليم الجثة إلى القادمين، بل أشاروا إليها ببنادقهم بأنها هناك. نظر إليها أحد المسعفين. سقطت الدمعة من عينيه دون أن يدري. رأى جثة

امرأة هناك عند ساقية المياه تنهشها الكلاب، لا تستطيع التعرف على ملامحها. قالوا له: لا تبكِ، هي خائنة وكل الخونة سنرميهم هناك لتنهشهم الكلاب.

ركبوا سيارتهم من جديد وعادوا من حيث أتوا دون جثة. لم يتفوه أحدهم بأي كلمة، إلا ذلك المسعف الذي ارتفع صوته بالبكاء واختلط دمعه بالسائل المخاطي باللعاب. وكان صوت التكبير يرتفع من كل صوب.

بكى الحضور، فحدّثهم الراوي بقصة بلابل الثورة وما حدث معهم، ثم سرد لهم ما قاله أحدهم لأولئك المغنين:

لا تنتظر منهم شيئاً، بل غنِّ أغنياتك وارفع صوتك عالياً لتبني بصوتك مستقبلاً لأطفالك. غنِّ وابكِ على شهدائك وقل: «سكابا يا دموع العين سكابا على شهدا سوريا وشبابا»! لا تنتظر أن يمنحوك حقوقك بل استردّها واصرخ أيها السوري وأملأ الفضاء و«يا محلاها الحرية»! نعم، هي الحرية، ها هي ذي تطرق بابك فتغنَّ بها وأنشد.

تذكّر أيها السوري أرضك كلّها وتذكّر تاريخك، مئات الأعوام لا بل هي آلاف الأعوام لن تؤثر فيها خمسون سنة من الاستبداد، فغنِ: «هيي وسورية، والأسد جرثومة فيها». نعم، لا تخفْ! اخرج إلى الشارع وعلّمنا كيف نصلي، كيف نستنشق الهواء، كيف نغني.

اخرج أيها السوري إلى الشارع، أَضرِب عن العمل، أسقط الشرعية عن النظام، لا تساهم بقتل إخوتك، والأهم من كل شيء، أن تستمر بالغناء: «الموت ولا المذلة».

كم عظيمٌ أنت أيها الثائر!! ويا لجمالك! نعم، سأعلّم أطفالي كيف يرسمونك بأشكالٍ تشبه أشكالَ الملائكة، سأدعهم يتخيّلون القاشوش وهو يصدح أمام الآلاف في ساحة العاصي: «ويالله ارحل يا بشار». سيرسمون هادي الجندي محمولاً على الأكتاف يجوب في شوارع حمص يهتف ويغني ويردد الشباب من خلفه: «عاشت سورية ويسقط بشار الأسد». سيفرح أطفالي حين يرددون أغنيات الساروت وسيذكرون ثورة

هذا الشعب العظيم، سيدرسونها في كتبهم، تاريخ سورية المعاصر صنعه شبان سورية بأصواتهم، فما أجمل صوته (الساروت) حين يغني: «ماتت قلوب الجيش، ماتت بها النخوة، ليش تقتلنا ليش، جيش وشعب إخوة».

سأعلّم أطفالي قبل أن يذهبوا إلى المدرسة وقبل أن يعرفوا «ماما ماما يا أنغاما» سأعلمهم أغنيات محمد عبد الحميد محمود، وسأجعلهم يغنون: «ونقول يا خاين ونقول يا خاين حافظ باعلنا الجولان وأنت حكمك باين». غنّوا يا أطفالي غنّوا!

في بدء الثورة كانت الكلمة، كانت الأغنية، رسائل أُرسلت للناس عن طريق أغنيات الشارع، فمن «صمتكم يقتلنا وغير الله ما إلنا» إلى «آزادي آزادي حرة حرة يا بلادي».

أيا أيها الثوار في سورية، إني لأخجل من تضحياتكم، وأنحني أمام عظمتكم، أبكي حين أسمع أغنياتكم. فاستمروا بالغناء، استمروا بثورة الحناجر هذه، فكما كسرتم جدار الخوف وأعدتم المعنى الحقيقي للأغنية الوطنية، أفرحونا باستمرار ثورتكم السلمية وبأغنياتكم الجديدة.

وهنا بدأ الراوية غناء أغنية رددها البطل عبد الباسط ساروت، وردد الحضور من خلفه «حرام عليه، حرام عليه»:

قالوا بشار يقتل شعبو عشان كرسي

حرام عليه حرام عليه

هجّر شعبو عن الوطن وسكن فيه

حرام عليه حرام عليه

ليه يدمر ليه يبيد شعبو ويكويه

حرام عليه حرام عليه

جرح الإخوة وجرح الوطن مين يشفيه؟ ربي يشفيه

حرام عليه حرام عليه

أعدم أطفال الأمة وطفلو بإيديه

حرام عليه حرام عليه!

أعود إلى نفسي وأنسى الرواية والمستمعين إليها وقارئيها إن هي دونت ذات يوم الروايةُ، فأحدّث نفسي بذكريات الألم والعتمة. ما سرّ هذه التجربة؟ كيف غيّرت طرقَ تفكيري وحياتي؟ أهو الحذاءُ العسكريُ القابعُ فوق رأسي من يمتلك مثل هذه السطوة؟

لا أذكر عدد المرات التي غبتُ فيها عن الوعي، في تلك الساعات القليلة التي أمضيتها في ذلك المكان! لكنني أذكر «سطلين» من الماء البارد أيقظاني.

كيف هو شكل ذلك المكان؟ لم أعرف. عيوني مغمضة، يدايَّ مقيّدتان خلف ظهري. تأوهاتٌ وصرخاتُ ألمٍ من كل مكانٍ تنخرُ في رأسي، توجعني أكثر من الضربات التي تلقيتها. كم هو سهلٌ التعذيب مقارنةً بما تسمع، أو ترى.

تلقيت الضربات هناك لدرجةٍ لم أعد أعرف بما أُضرب وأين. لاحقاً (بعد أن خرجت) اكتشفت أو تذكرت بأنهم يضربون في كل الأماكن التي من الممكن أن تخبأ تحت الثياب، كالظهر والبطن، يضربونها بالعصي والكبلات والأحزمة وأشد ما يوجع هو الخصيتين، أيريدون قطع نسلي؟

في الوجه والرأس تسلية خاصة لهم، يريدونك أن تشعر بالإهانة، فكم فعسوني تحت أقدامهم وكم شاطوا رأسي وكأنه كرةٌ يسهل ضربها.

ومن جملة ما أذكر هو اختلاف روائح أقدامهم. ففي السيارة وهم يضربونك، تشمُّ رائحة العفونة من أرجلهم، يا لها من مقرفة! وفي غرفة

التعذيب تستطيع شمّ العرق والحقد، أما رائحة أرجل الضابط، فهي مختلفة لا عرق ولا عفن ولا شيء سوى رائحة الدم والعذاب والقهر.

يتسلون بطرق الضرب والتعذيب، هي رياضةٌ خاصةٌ، يلكمونك ككيس الملاكمة، ويضربونك بالعصي كما كرة البيسبول، يشوطونك كما في كرة القدم، ويتقاذفون جسدك بين أيديهم ككرة السلة.

كلماتهم هي شتائم ولا شيء غيرَ الشتائم، يمارسون هذه العادة بكل أريحية ويتفننون بها، كدتُ أن أصدق أنني عرص، وأنّ أمي شرموطة، من شدة ما ردّدوها على مسامعي. أيعقلُ يا أمي؟ إنهم ينجّسون طهارتكِ بأفواههم القذرة.

في خضم هذه الأفكار التي لوّثت رأسي غفوت، لكن النوم أتعبني، استيقظت لأشرب من كأس الماء الموضوع على الطاولة المجاورة لرأسي. مددت يديّ، أمسكتها، رفعتها إلى فمي، شربت، أحسست بدماء تسري إلى جوفي لا ماء. أضأت الغرفة فإذا بلونٍ أحمر يملأ كأسي.

نهضت خائفاً وصرخت. توجهت إلى باب غرفتي لأجد سبيلاً للهرب، لم أجده. كانت الغرفة تحتوي على جدران فقط بلا مدخل للهواء ولا مخرج له. كيف دخلت إلى هنا؟ لا أذكر تفاصيل الأشياء. كيف السبيل إلى الخروج؟ لا جواب.

أهو سجن هذا؟ وكيف يكون بلا أبواب؟ من أين سأجلب هواءً نظيفاً عندما يتعفن هذا الذي عندي؟ لا تسأل فستتعب من السؤال، هكذا أجبت نفسي. استدركت وأضفت مجيباً: لكن ما الحياة إن لم تكن سؤالاً؟ وهذا أيضاً سؤال.

تيقنت بأنني لن أخرج من هنا حياً، فقررت الاختلاء بنفسي، كما يفعل الأنبياء قبل تلقي دعواتهم الإلهية، وقلت لنفسي: سأحدث نفسي بما يخالج نفسي لأجيب نفسي عما يدور في نفسي. وبدأت بالسؤال: لِمَ السؤال؟ لم أعرف طريقاً للجواب.

لِمَ يموت الشهيد؟ سألتُ. لا أعلم، أجبت وأضفت بصوت عال: ربما يموت من أجل أن يموت وربما يموت من أجل أن يحيا، لكنني متيقن من أنه مات من أجل أن أحيا أنا.

دوت هذه الجملة في المكان «مات من أجل أن أحيا أنا». وتردد الصدى أكثر من مرة حتى حسبت أنني في واد تحيط به الجبال، وانشق الجدار ليمر خيط من نور، لكن الشق لم يكن كافياً لمروري فعدت لأكمل جلسة الاستجواب الشخصية.

هل يحلم الشهيد؟ نعم يحلم، يحلم بما مات من أجله، يحلم بالوطن الذي لم يتسع له وبالأرض التي تقدّست برفاته، يحلم بأخته الصغيرة النائمة في حضن أمه، يحلم بي وبك وبهم. إن الشهيد يحلم... إن الشهيد يحلم. انفرج الجدار المقابل عن شق جديد.

كيف يكون صوت الشهيد؟ سألني. فاحترت في السؤال، نظرت إلى شقَّي الضوء في الجدار، كانا يكبران كلما اقترب منهم جمع هائل، كنت أحس بوجوده ولا أراه. وفجأة أجبت: صوت الشهيد هو صوت الموت، فسألتني مخيّلتي: وما صوت الموت؟ فأدركت خطئي وقلت: الموت لا صوت له إلا حين نحس به. فكثر ماتوا دون صوت لكن موت الشهيد صاخب. انشق الجدار من جديد. واقتربت شقوقي الثلاثة من بعضها وبدأت تكبر شيئاً فشيئاً، فاتضحت الرؤية. رأيت جمعاً هائلاً من الناس لم أكن قد شاهدت مثله قبلاً. رأيتهم يحملون نعشاً على أكتافهم ويغنون للشهيد.

في تلك اللحظة انتابتني موجة من العز والكبرياء وأنا أقف في مواجهة هذا النعش، صرخت بأعلى صوتي: حيّوا الشهيد.. حيّوا الشهيد. وركضت في اللحظة نفسها باتجاه جمع الناس لأشارك بشرف حمل الرفات. فتكسرت الجدران واتضحت معالم الأشياء. وكان نهار.

أعود إلى حكايتي وإلى المُدن التي اقتربت مني أحياناً وابتعدت أحياناً أخرى. فكتبت حينذاك رسالة إلى حسن نصر الله ـ زعيم حزب الله اللبناني ـ وقلت له فيها إنّ لي في بيروت ودمشق أكثر مما له. وفي تفاصيل رسالتي قلت له:

السيد حسن نصر الله،

تحيةٌ معطرة بدماء الشهداء، شهداء سورية ممن يدافعون عن كرامتها في وجه دكتاتورية تؤيدها أنت.

أما بعد..

فقد بلغني عنك إرسالك جنود حزبك إلى سورية لقتال أبنائها ممن تسميهم بالتكفيريين، كما بلغني تعطيلك لتشكيل حكومة لبنانية تدير البلاد، بحجة «رغبات المقاومة» التي ما انفككت تختبئ خلفها. لذا ارتأيتُ أن أرسل لك هذه الرسالة، علّها تهديك إلى طريق الحق، وتثب بك من جادة الضلال التي تسير فيها وتُبعدكَ عن درب البطلان الذي تنتهجه.

سيد حسن، لي أنا المواطن السوري دلير يوسف «الذي لا يملك شيئاً سوى نفسه» في بيروت أكثر مما لك. لي فيها نقاشات لا تنتهي في شارع الحمرا، ولي في بارات الجميزة ومار مخايل صولات وجولات. لي في حارات طريق الجديدة حجارة أذكرها كلما أغمضت عينيّ، ولي في الأشرفيّة حكايا طويلة. هل تعرف أين تقع الجعيتاوي حيث كنت أعيش؟

لي في مخيّمات اللجوء قصص ألم وأمل لم ولن تعرفها، لأنك لم تدخل المخيّم ولم تعرف تفاصيله الصغيرة والكبيرة. هل اشتريتَ يوماً شيئاً من شارع صبرا؟ هل تبضعت أثاث بيتك من الأوزاعي أو من بئر حسن؟

هل تعرفت يوماً على أحد سائقي التكاسي ممن يأتون يومياً من إحدى قرى البقاع أو الجبل للعمل في بيروت؟ وهل تبادلت أطراف الحديث يوماً مع فنان لبناني لم يسمع به أحد لأن أصحاب الغاليريات ورؤوس الأموال لم يتعرفوا عليه بعد؟ هل سمعت يوماً ما بالأحداث الثقافية «الصغيرة» التي لم يتسع الإعلام لذكرها؟ ألاحظتَ أنني قلت صغيرة.. وقصدت هنا ندوات ثقافية أو مسرحيات وأفلام لم تنتشر في مهرجانات كبيرة أو نوادٍ ثقافية ولا تنقل مباشرة على الهواء؟ أسمعتَ يوماً أغنية راب لبناني؟ هو فن حديث، وليس رجساً من عمل الشيطان.

أما دمشق، قد لا تسعني الكلمات لأحدِّثَك عن دمشق، لكن سأذكر لك بعضاً من معالمها، لتستطيع الإجابة عن المكان الذي أرسلت إليه جندك كي يقتلوا البشر، إن سألك أحد أزلامك عن هذا مع أني أشكّ في ذلك.

دمشق ليست الجامع الأموي ومقام السيدة رقية ومقام السيدة زينب وحسب. دمشق تحوي مقامات كثيرة لأديان مختلفة، وإنْ سألتَ سكان دمشق الأصليين فسيقرّون لك بوجود آثار وثنية في بعض حارات الشام القديمة.

دمشق مدينة مختبئة عليك اكتشافها كي تحبها وتعرفها. قل لهم ذلك إن سألوك عنها ذات نهار، قل لهم: دمشق مدنٌ عدّة تجمّعت لتكون مدينة واحدة، لها عمرٌ أطول من عمر كل الأديان الموجودة على سطح الأرض. ولا مانع من ذكر بيت الشعر هذا الذي نظمه ذات يوم الشاعر

«شفيق الكمالي» في وصف دمشق:

عجيبةٌ أنتِ بدء الدهر مولدها ولم تزل غضّة والدهر قد هرما

إن كنت تقصد ما تقول حول ذهابك للقتال في سورية وعبرت نقطة المصنع الحدودية، أو إن تسلّلت من إحدى قرى البقاع كما يفعل جنودك ووصلت إلى دمشق (هذا إن استطعت)، فاسأل عن مقاهي حارة دمشقية تدعى ساروجة. اذهب إلى هناك وتعرف على شباب سوري، قد يكون صغيراً بالعمر لكن له ثقافة قد تفاجئك. واقصدْ قاسيون وانظرْ إلى الشام واعرفْ ما معنى مساهمتك في تدمير هذا الجمال.

هل سمعت بالمغنين في ريف دمشق، مغنّي الغوطة الشرقية؟ أبو زيد عفوف، أبو نعيم القابوني، محروس الشغري... هل سمعتَ بهم؟ هم من تراث الشام العتيق، قد قُتل معظمهم في سجون حليفك الأسد. اذهب إلى الغوطة الشرقية لتسمع أغنياتهم وتتمايل مع كأس العرق. هه لا تستطيع الذهاب إلى الغوطة، اللهمّ لا شماتة.

ملاحظة: تستطيع سماع أنشودة تبدأ بـ لازم ترحل يا بشار/ هي دوما كلّها ثوار/ اسأل فرنسا يا غدار/ ساقط ساقط يا بشار.

ربما تستطيع زيارة حي المهاجرين، سيّدك الأسد هو مختار ذلك الحي، فتراه لا يغادره خوفاً على نفسه. إن زرتَ المهاجرين اذهبْ إلى الجادات وخورشيد وتمتّع مع كأس من الشاي بمنظر دمشق من تلك الحارة العِلوية المطلّة على جلّق الشام.

اذهبْ إلى ركن الدين، لا تسترق النظر إلى فتيات الحي الجميلات، بل استمعْ إلى قصص الحياة المنبعثة من حارات الحي الضيقة. قصص لن تقتلها رصاصة تطلقها بندقية أحد مقاتليك.

تسوّق في أسواقنا الجديدة كالشعلان والقصاع أو في أسواقنا القديمة كالحميدية والحريقة. لك أن تتمتع بكأس عصير من أحد

المحال الكثيرة وخذْ سندويشة شاورما أو فلافل، لك أن تستمتع ببعض البوظة التي حرمنا سيدك منها، نحن المنفيين واللاجئين السوريين.

لن تسعني هذه الأوراق لأكلّمك عن دمشق وبيروت، لذا سأكتفي بما ذكرت في وصف المدينتين. لكن تذكّر رسالتي هذه وأنت تستقبل جثث مقاتليك ممن أرسلتهم إلى الموت في سورية، تذكّر كلّما مررتَ بحي أو قرية أو مدينة تقطنها أغلبية ممن يتبعون حزبك وشاهدت صور هؤلاء الشبان ممن دفعوا حياتهم ثمناً لدعمك دكتاتورية تضمن قوّتك في المنطقة.

حسن نصر الله، إن استطعت النوم ليلاً دون أن يؤنبك ضميرك أو أن يؤرقك ذِكرُ مَنْ تقتلهم أو مَنْ تُرسلهم ليَقتلوا فيعودون مُحمّلين في صناديق خشبية. إنْ استطعت النوم ليلاً، هل ترى أرواحهم تحوم حولك وتريد خنقك في كوابيسك؟!

بيروت. بيروت هي الأخرى، شبيهة الشام وأختها. لا شيء فيها يُحب لكنك تحبها. بيروت.. حين كان لموتنا بلادٌ أخرى.

بيروت تفتح ذراعيها لمن طلب إلا لنا، نحن السوريين الجدد. في شارع الحمرا ترانا متسكعين، نجلس في المقاهي والبارات لساعات طويلة؛ نراقب ونتحدث دون أن نكون جزءاً من هذه المدينة. أو ترانا على الأرصفة نبيع الورود عسى أن نلقى حبيبين يشفقان علينا فيبتاعا وردة منّا.

بيروت مدينة التفاصيل، عصيّة هي علينا، نحن اللاجئين هنا. نفترش أرض الميناء وأرصفة المدينة، وقد تجدنا أو بالتأكيد ستجدنا تحت الجسور نبحث عن عملٍ ما. نعلم بأننا سنُستغل وسنرضى بأجور زهيدة عسانا نروي ظمأ طفلٍ قد وُلِد للتو.

بيروت مدينة اللجوء تحتضنهم كلهم إلانا. ابحث عنا هناك في مواطن اللجوء الفلسطينية، سترانا حتماً هناك في صبرا وشاتيلا، في برج البراجنة وفي الداعوق وسعيد غواش وغيرها من مناطق الفقر والتشرد واللجوء. نحن هناك لن تبحث عنا طويلاً لتجدنا. هناك من يحتضننا بعد أن تُهنا في البلاد، وجدنا لاجئاً هناك يقبل بنا لاجئين في بيته نستعمل أدواته، ننام في فراشه، وترى أطفالنا يلعبون بالألعاب النارية معاً. لا مكان للاجئ هنا إلا بيت اللاجئ.

بيروت مدينة العمل ومنظمات المجتمع المدني التي تساعد كل الناس باستثناء السوري. ولا تكتفي بذلك بل تحاربنا إن أردنا مساعدة

بعضنا، فما إن بدأنا العمل حتى رأيتهم يتهافتون علينا بغية سرقة عملنا، بيروت مدينةٌ سارقة. ويا لحظي السعيد، فأنا ما زلت هنا ولم أُسرق ولم أتعرَّ بعد.

بيروت مدينة الحرية. حريةٌ لكل الناس إلا لمن طلبها من السوريين. فهنا، وإن خرجنا، ولن نخرج إلا نادراً خوفاً من عقاب بعض الفرقاء، فسترى الجيش يحيط بنا ليحمينا فيخيفنا، وترى أحد الفرقاء يهجم علينا، وكأن الاستبداد لحق بنا من الشام إلى بيروت، كيف لا وهما مدينتان عاشتا الظلم عينه. هنا لن تستطيع رفع علم الثورة إلا في مناطق معيّنة، وفي مناطق أخرى ستغلق نافذة غرفتك لترفع علمك خوفاً من جارٍ قد يشي بك إلى إحدى العائلات فيخطفونك، ولن يسأل عنك حينذاك أحد، لا جيش ولا حتى أحدٌ من إخوتك، فأنت الآن من المحسوبين على شهداء الوطن، أو تكاد.

بيروت مدينة الجمال يراها من يشاء إلا نحن. لم نلق في هذا الجمال إلا العذاب، فكان الوجه الآخر منه نصيبنا. الشوارع الضيقة، الطين، غلاء المعيشة، الكهرباء والماء غير الموجودين، مواصلات لا تعيننا، ومقص طائفي نحن ننام بين حدّيه، وخطف ينال منا في أماكن سكننا.

بيروت وجهة السوري متى شاء حتى في الحرب الأهلية إلا الآن، فهي وجهة من شاء سوانا، فلا صيف نتقي فيه حرارة شمس، ولا شتاء يبعث لنا برسائل خريفية الآن.

بيروت كانت قبلتنا. بيروت كانت وجهتنا. بيروت كانت بيروت.

بعض المناطق تكون أوسع من المدن، كمخيّم اليرموك. مخيّم اليرموك هو الوطن الضائع، لذلك حين كتبت رسالة لولدي الذي قد يولد ذات يوم ذكرت له اليرموك كثيراً، وقلت:

هنا اليرموك

هنا أصل الحكاية

هنا يقف قلبي عند مدخل المخيّمين

ويبكي.

لا أنتمي إلى هذا الوطن..

لا أنتمي إلى أرض نبذتني، ولا أنتمي إلى شعب يفرح لموت بعض منه، ويفرح البعض الآخر حين يموت البعض الأول.

أنتمي إلى بعضٍ آمن بالحرية فمات من أجلها أو بقي يعمل لها.

أنتمي إلى بعضٍ تشرّد في أصقاع الأرض دون أن يحني رأسه لأحد..

أنتمي إلى بعضٍ، ولا أصدق كذبة الشعب العظيم...

يا ولدي..

إذا تعرفت ذات يوم على فلسطينيٍّ ممن عاشوا:

ـ أيام النكبة 1948، دعه يحدثك عن بدء معاناتهم لما فعله الاحتلال بهم، لتعرف كم تعذبوا حتى أصبحت المخيّمات بالشكل الذي نعرفه اليوم.

ـ أيام النكسة 1967، فليحدثك عن دمائهم التي باعها «إخوتهم»، وكيف تمت المتاجرة بهم وبقضيتهم.

ـ الحرب الأهلية في لبنان، دعه يحدثك عن الفرق المتصارعة هناك، كيف أنهم كانوا يقتلون بعضهم بعضاً، كلهم أضداد إلا حين يتعلق الأمر بالفلسطيني، فكلهم واحدٌ ضده. دعه يحدثك عن تل الزعتر وعن مجزرة صبرا وشاتيلا وعن حرب المخيّمات وعن برج البراجنة وسعيد غواش والداعوق.

ـ في فلسطين، فليذكر لك ما حدث حين اجتاح الإسرائيلي جنين، وحين شنّ الحرب على غزة، وليحدثك بتفصيل مملّ عن الانتفاضات في وجه الاحتلال.

ـ في مخيّم الرمل في اللاذقية، فليحدثك عن القصف الذي تعرضوا له من زوارق النظام السوري الحربية.

ـ في مخيّم اليرموك، دعه يسترسل في الحديث عن حصار المخيّم، وعن الناس وهم يموتون جوعاً أو قصفاً بالبراميل المتفجرة.

دع الفلسطيني يحدثك عن معاناته لتعرف ماهيّة الشعب الذي يعيش رغماً عن أنف البشرية.

يا ولدي!

حين يموت مخيّم اليرموك من الجوع، فكن على يقين بأن خير الشام قد نضب.

لا تصدّق أنّ الإنسان قد يصبح حرّاً فجأة لأي سببٍ كان. طالبُ الحرية هو إنسانٌ حرّ من البدء، فالحرية هي ممارسة يومية، وليست طارئاً يأتي فجأة ويرحل فجأة.

يا بني لا تتردد في شيء قد تفعله، ولا تندم على شيء قد فعلته، فواثق

الخطوة يمشي ملكاً. لا تعبد شيئاً ولا تتبع شخصاً إلا إن كنت مقتنعاً بما تفعله، وأسأل روحك وعقلك. فلتكن حياتك ثورة على والدك: «أنا»، وعلى أمك وعلى مجتمعك وعلى أي شيء آخر قد يسيطر عليك.

لا تنسَ فلسطين، لا تنسَ المظلومين في العالم كله، لا تنسَهم إن كانوا كورداً أو صوماليين أو أفارقة، لا تدع الجنس أو اللون أو الجنسية يكون حاجزاً بينك وبين أحد. كن إنساناً. وقرر أنت، أنت وفقط أنت، ولا تدع أحداً يفرض عليك شيئاً، حتى حبيبتك.

يا ولدي لا تنسَ المرأة فهي نصف حياتك الجميل. لا تتخلَّ عن الأنثى، حتى وإن كنت مثليّ الجنس، فلتكن المرأة موجودة في حياتك.

تذكّر محمود درويش حين قال:

«وكل ما يتمنّى المرء يُدركُه  إذا أراد وإني ربُّ أمنيتي...»

يا ولدي..

انسَ رسائلي ووصاياي، وعش حياتك أنت ولا تدفع ثمن فشل والدك!

لا نعبرُ الجسرَ إلا حفاة، عراة. لا شيء يكسو أجسادنا.

يبدأ النشيد في حنجرتي، ولا ينتهي. يرحل الصوت بعيداً ليقضّ مضاجع الصامتين، إخوتي. يكوّن الصدى نفسه فيكون ما يريد كأي شيء أراد أن يكون، فيقول لذاته: كن، فيكون.

يمرّ على ذاكرتي ترابٌ منقوصٌ من الشاهدة، لا أسماء هنا لمن سقطوا. جموعٌ من الأجساد ممتدة أمامي كأنها سهلٌ من الخُزامى ترتبط رائحتها بثيابي لتربطني بأرض مشدودة إلى قلبي بحبل مشيمة لا ينقطع حتى إن أراد أو أردت. هل يعودون مع طيورٍ هاجرت إلى ما وراء الحروب؟ أماهُ، لا تبكِ!

لنعترف بالقافلة، القافلة التي تسير على هوامش الكلام، وتكون مداداً له، كالحبر حين يصبغ الورقة المتأنقة ببياضها أمام شحوب لوني. تأتيني الصحوة حين ينام الجميع. ليلة واحدة فقط وأُشفى من رُهاب الاغتراب. لا مكان لجرذ إضافي فوق هذا الفراش.

أصابُ بهلوساتِ مريضٍ غاب عنه الوعي لفترة طويلة. عبثاً أحاول الخروج من مستنقع الدم الذي يغرق فيه الجميع بعد أن لاذوا بالصمت كأنهم خُرس أو أموات. أحاول العثور على صدىً لصوتي فأتوه بين الكلمات المبعثرة هنا وهناك. أصابُ بالجنون.

أفتشُ عن نفسي لأكوّن منها رُهاماً تصعد إلى السماء ولا تعود، وأبحث عن حروفي لأصنع منها مطراً يسقي عطش الأرض إلى أبجدية ترويها.

جنونٌ ما يصاحبني، كيف أفرش مثل هذه الكلمات هنا مبعثرة غير

واضحة الأفكار مرتبكة؟ لا بدّ أن مسّاً ما قد أصابني. كيف لا وجنونُ الموت يحيط بي من كل حدب وصوب؟ كيف السبيل إلى أن يحافظ المرء على بعضٍ من عقل في مثل هذا المكان؟ كيف السبيل إلى تجنّب انجرافنا مع طوفان الدم هذا؟

أتساقط على الأرض كما لو أنني ورقة التوت الأخيرة المعلّقة على أغصان هذه الشجرة الضخمة التي تُسمى الوطن. أرنو إليكِ فلا أرى إلا ضباباً يكتنف الطريق الواصل إليكِ.

تحتضن الأرض جسدي لكنها تضيق بالفكرة، فتعصرني أكثر في هذا النطاق الضيق المُسمى قبراً. يعصرني المكان فأخرج من نفسي ومن الزمان وأحلق بعيداً عن هذه الأرض. هناك حين يكون للموت اسمٌ آخر، حين لا يكون الجوع والذل والدم والحرب أبجديات تنطق بها، هناك سألقاكِ.

في حكايتي مدينة أخرى تجاور حلمي، حماة. كيف أصف حماة؟ كيف أكتب عنها والدماء تسيل بكثرة، وبغزارة أشدُّ من غزارة الحبر على هذه الصفحة البيضاء المُفترِشة أمامي كسهلٍ واسع؟

عن ماذا أكتب؟ عن حماة، تلك النائمة على أطراف نهرٍ ممتدٍّ على طول خارطتي. عن تلك المدينة المسكونة بالجراح والآلام، عن شهداء زرعوا الأرض بأسمائهم كما لو أنهم أشجارٌ في غابةٍ تُحيي نفسها كل عقدين مرةً.

عن الموت الملتفِّ حول المدينة أكتب أم عن الدمار؟ وكأن تلك المسكينة قد عقدت قرانها على ماردٍ أخرقَ يستمتع باغتصابها كل ما رغبتْ نفسُه بذلك. والعجب أنه يظن نفسَه يداعبُها ويمتّعها.

ولماذا أكتب؟ أبالكتابة أحيي العظامَ وهي رميم؟ أم أُنزل ذلك الحِملَ من على كتفي وأقول: سلاحي القلمُ، وبماذا أستطيع أن أساعد إلا بالكلمة؟ أو أكتب لأمجّد من ضحى بنفسه من أجل مستقبلي وأنا مختبئ في جُحرٍ أحتمي بأوراقٍ وبشاشةٍ زرقاءَ تُوصلُني بالعالم.

أعود إلى ورقتي متخبطاً بأفكاري، لا أعرف أين وكيف ولماذا. أحاول أن أسرق العبارات فيخيّل إليّ بأنني أرى وجوه الشهداء أمامي. أمحو الفكرة وأقول هي مجرد تخيّلات وأوهام. فإذا بأصدقاءٍ لي يهربون من ضربات النار. أُبعد صورتَهم من أمامي، لا أستطيع!

أريد أن أكتب لهم شيئاً أو لنقل بشكلٍ مجرد أنني أريد أن أكتب لحماة، وما هي حماة؟ أأحاول تعريفها هنا؟ لا لن أذكر عدد السكان أو

المساحة، لا لن أذكر تاريخها ولا جغرافية أرضها. ما الذي تريده إذاً؟ أحدّث نفسي.

خاطبتها ذات قصيدة: يا حماة كوني على خارطة وطني، كما البدرُ في الليلة الظلماء. لكن لم أكتفِ بذلك الوصف، ألا تستحق تلك النواعير أن توصف أيضاً؟ والدماء التي تسقي النباتات هناك، أليس من الواجب عليّ ذِكرُ تفاصيل عنها؟ لا أعرف!

يدفعني الحديث لأن أتحدث عن الحب قليلاً. قليلاً؟؟

لأتحدث عن بعض لحظات الحب التي تركت أثرها عليّ. أرويها بصيغة المراقب والشاهد، لا بصفتي صانع الحدث. لماذا؟ لا أعلم.

وفي حكاية لحظاتي:

**اللحظة الأولى**

**المكان: ضاحية قدسيا، دمشق.**

**الزمان: نهار شباطيّ بارد جداً من عام 2013.**

نسبة الأدرينالين مرتفعة في الدم. خوف من اعتقال قد يأتي في أي لحظة. لم تمض أيام معدودة على اجتيازه الحدود الفاصلة بين لبنان وسورية بطريقة غير شرعية، باحثاً عن أمل في إنقاذ حبه. الجو بارد جداً ودرجة الحرارة حسب تقديرات المحليين (-10) أو أكثر. لا كهرباء ولا أي وسيلة من وسائل التدفئة. جسدان عاريان لا يفصل أحدهما عن الآخر شيء، عروق ملتصقة ببعضها والجلد يحتك بالجلد. يلتحفان أحدهما الآخر ويشدان إلى نفسيهما غطاء يكاد ألا يغطيهما.

شفتها المرتجفة تلتصق بشفته، لا يشعران بما يدور حولهما، حتى درجة الحرارة المنخفضة لا تهمّهما، فالحرارة المنبعثة من جسديهما كافية لتزيد من حرارة المكان كلّه.

نسي كل شيء وهو معها وتذكّر كل شيء، فكّر في كل شيء: الاعتقال

المحتمل والاعتقال السابق، أمه، أصدقائه، حبيباته السابقات، القتل والحرب في سورية، الثورة... أي لم يفكر في شيء. تناسى كل شيء.

كانت أصوات القصف المنطلقة من حاجز يتكئ على جدران بناء قريب يدكّ بلدة قدسيا القريبة ممتزجة بأصوات تأوهاتها وقبلاتها تكسر صمت الأشياء المحيطة. حين استراحت مستلقية بجانبه، مقبّلة إياه على خده قالت له بأنها تحبه، وكأنهما لم يفترقا.

هجرته بعد أسبوع من تلك الحادثة. الآن يجلس في مكان دافئ في البعيد جداً، يتذكر اللحظة ويبتسم.

**اللحظة الثانية**

**المكان: أحد شوارع برلين.**

**الزمان: مساء حزيراني دافئ من عام** 2013.

قررتْ الذهاب معه إلى ملعب كرة القدم لتشاهده يلعب مع أصدقائه الجدد. لم يسبق له أن شعر بشعور كهذا مع فتاة التقاها منذ عدة أسابيع فقط. أنهى لعبته، كان يسترق النظر إليها كل حين وهي تجلس في زاوية الملعب، تقرأ أو تنظر إليه. هي لم يسبق لها أن رافقت شاباً إلى ملعب كرة القدم. خرجا بعد انتهاء المباراة، رفضا دعوة أحد الأصدقاء لشرب شيءٍ ما، وقررا المشي في شوارع برلين.

الطقس دافئ يشبه أجواء المدن المتوسطية في أيام الربيع، رائحة عطره الممتزجة برائحة عرقه لم تمنعها من الاقتراب منه وتقبيله كل حين. قررا أن يضيعا في مكان من المدينة لا يعرفانه. توقفا في أحد الشوارع بعد أن بلغت نشوة الحب ذروتها معهما. شدّها إليه فاستجابت بأن وضعت يدها خلف حقيبة ظهره الرياضية ممسكة بكنزته الزرقاء،

تلك التي تشبه كنزة فريقه المفضل، مدّت يدها الأخرى نحو خلفيته البيضاء من خلف شورته الأحمر القصير، اعتصرها في حضنه، جاعلاً من فستانها الواسع جناحان يطيران بهما.

تلامست شفاههما ولم تفترق إلا بعد دقائق طويلة افترضا بأنها العمر كلّه، تلك اللحظة بدت وكأنها قد خُلقت خصيصاً لهما: شارع فارغ إلا منهما، سيارات مرصوفة على الجانبين، أشجار موردة على طول الشارع، صوت قطار الأنفاق الذي يمر كل دقيقتين بانتظام ونسمة هواء لطيفة تلامسهما.

هجرته بعد شهرين من تلك الحادثة. الآن يجلس في مكان دافئ في البعيد جداً، يتذكر اللحظة ويبتسم.

**اللحظة الثالثة**

**المكان: كرسي في شارع جانبي في أمستردام.**

**الزمان: ليلة رأس السنة** 2013-2014.

افترقا عن أصدقائهما، وقررا أن يمضيا ما تبقى من ساعات يحتفلان بقدوم السنة الجديدة وحيدين في شوارع هذه المدينة الغريبة، لكن المألوفة في الوقت ذاته، كأنما قد عاشا هنا من قبل رغم أنها المرة الثانية لهما أو الثالثة على أبعد تقدير.

التقيا قبل عدة أيام في إجازة الميلاد التي قضياها عند صديقة مشتركة في هولندا، أحبا بعضهما، وقررا الارتباط رغم عيشهما في قارتين بعيدتين إحداهما عن الأخرى. «بس الحب ما بيعرف زمن» قال لها. «ولا مسافة» أجابت.

مشيا قليلاً وتناولا بعض الطعام في مطعم مصري منسي في تلك

المدينة الضائعة. مشيا بمحاذاة النهر طويلاً، ثم جلسا على كرسي مرمي أمام أحد المنازل. كانت قطرات المطر الغزير التي هطلت منذ قليل قد بللت المقعد لكن ذلك لم يمنعهما عن الجلوس. كمشهد سينمائي يمكننا تخيّل المشهد:

عاشقان جالسان على مقعد خشبي على ضفة نهر وبيوت ذات قرميد أحمر خلفهما، يحتسيان مشروباً من علبة واحدة، وفي الخلفية أصوات المفرقعات والألعاب النارية التي لا تهدأ، كل بضع دقائق يقترب منهم أحد سكارى المدينة ليلقي السلام أو ليرقص معهما قليلاً، ثم يرحل ويدعهما بسلام، رذاذ مطر خفيف، يتبادلان القبل كل حين، يتحدثان بكل شيء أي لا شيء، ويسكران بحب كل منهما للآخر.

لم تهجره بعد هذه الحادثة *حتى الآن*. الآن يجلس في مكان دافئ في البعيد جداً، قلبه ينبض عشقاً، يردد لنفسه اسمها وكأنه ترنيمة إلهية ثم يلحقها بكلمة «بحبك»، ويبتسم.

قصة جفرا. تلك قصة أخرى. ليست قصة حب أرويها، بل هي قصة ألم رافقت جفرا منذ تغربت عن الشام.

كان جسدها ممدداً فوق أرض غرفتها. بنطالها الجينز المشقق وكنزتها الخفيفة هي جلّ ما ترتديه رغم البرد القارس في الخارج. كانت تبدو للناظر إليها نائمة، أو حتى ميتة، لم تحرّك ساكناً. هي على هذا الحال منذ ما يزيد على أربع ساعات. مدّت يديها ببطء لتستشعر وجود نهديها، داعبتهما بثقل ثم مدّت يديها إلى الأسفل، تذكرت وجود ذلك العضو لديها. في تلك اللحظة انتفضت وتوجهت إلى الحمّام، وكأنما استدركت فجأة وجوب التبول. كان حمامها أنيقاً صغيراً خالياً من أي شيء يدل على الأنوثة باستثناء الفوط النسائية المتوضعة فوق الغسالة المُشتراة حديثاً.

تبدّلت ملامح وجهها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة وتتذكر ما حدث معها خلال اليومين الماضيين. لقد اغتُصبت روحها.

كانت تقف وحيدة يحيط بها رجال الأمن من كل مكان. «أنا تركي وهاد ألماني وهاد سوري.. أنتِ شو؟؟» هذا ما قاله لها كبير الضباط في المطار حين رفض إدخالها البلاد. وقفت مذهولة، لا تعرف ما يتوجب عليها فعله. عجزت عن الصراخ أو البكاء، عجزت حتى عن الكلام. كانت تنتظر هذه اللحظة منذ أشهر طويلة بفارغ الصبر. ليس عليها إلا الهبوط هنا ثم تستقل حافلةً متوجهةً نحو الجنوب، ومن ثم تراب الوطن الأم سيلتحفها.

لم تأبه بكل الصعوبات التي ستواجهها أثناء اجتيازها الحدود نحو الوطن، لم تأبه بخطر الصواريخ والطائرات. كل ما أرادته هو يومٌ واحدٌ في ربوع وطنها «المفترض»، فهي لم تنسَ يوماً من الأيام أنها لاجئة هنا. رغم أنها ولدت هنا، مثل والدها، لكن الأمرّ أجبرهم على هذا المرّ، أرضهم مغتصبة هناك وما زال البيع والشراء مستمراً بقضيتهم منذ ما يزيد على ستين سنة.

أجهشت بالبكاء من جديد. كانت جفرا تعيش وحيدة، لم يكن هناك من تستند إليه وتشكي إليه وجعها في هذه المدينة البعيدة، لم يكن لها أصدقاء أو أقارب يشاركونها وجعها. هو مرضٌ جديد أصابها كما معظم المغتربين والغرباء، مرض المكان، الشوق إلى موضعها القديم، مسكنها، رفاقها، أقاربها، عملها.

جلست إلى طاولتها وتسمّرت عيناها على شاشة الكمبيوتر الموضوع أمامها. حدّثت رفاقها من خلال الشاشة الزرقاء التي أمامها، ثم بعد حين وكأن وحياً هبط عليها كتبت على صفحتها الخاصة على فيس بوك:

«عندما اتّجه الجميع إلى هناك جررتُ أحلام اليقظة خائباً.. عبرتُ جهاز كشف المعادن وروحي تعبر قنسرين، طرتُ السماءَ ورئتاي تتسولان نسيم الفرات، خطوتُ أرضاً غريبة وأصابع قدمي تتوسل طهر هيرابوليس. حملتني الرياح بعيداً وتركتْ أشلائي هناك وليمة.

«أنتِ لا شيء!» قالها لي ولم يخجل من خمس سنين كنت ألثغ فيها اسمها، وعشرين أخرى أهيمُ في الحب. كتلةٌ من الإثم أنا، هذا كل شيء.. معلقٌ، لا حياة ولا موت، أنظرُ في عينيكِ لأسرق الدقائق والأمل، يستهلكني الشهيق وأنتظر صدركِ لأزفرَ التعب.

لا تولمي قلبي للتراب! أنصتي! ما زال يرتّل اسمكِ...».

بما أن الحديث هو حديث الحب، فسأورد هنا رداً كتبته لأحدهم ممن تغزل بمحبوبته. الفتاة صديقتي وهو كاتبٌ له من الشهرة نصيب. وهنا أورد الرد، تاركاً النص الأصل «كي لا يُعرف الكاتب وبالتالي الأنثى التي تغزل بها». أترك القارئ ليتخيّل النص الأصل والأنثى صديقتي، محبوبته.

هي مُؤنثة للغيم لا متأنثة بها.

اقرأ ما شئت من كتبٍ تنبسط من راحة كفها، وكوّن ما شئت من جُملٍ تعبيرية، تغمسها بدمٍ وأزمان وجمل متناسقة، في قصيدة بلا قواف. تُشبّهها بالشام، وكأن الشام لعبةٌ تشبّه من تشاء من النساء بها وتكرر على مسامعهن جملة كل من كتب حرفاً: أنتِ والشامُ.

تربطها بثورةٍ لا تملكها، وتصنع أفعالاً لا تُؤطرها، تصفها بكل ما تشاء وتصنع صوراً من مخيّلتك. كيف إنْ رأيتها مجسدة أمامك؟

هو الكلام حين يصف الكلام، تمرّد وخروج عن الأوزان، جمال، عذوبة وبوح. تُفرغ ما أردتَ من صفات على جسدها، يسيل دمك الأسود فوق صفحتك البيضاء وتمتد الحروف أمامك كسهل طويل ارتدى العري، فانبثق الجمال من الكلام، لكنه في الهواء كلام.

أتذكر الدرويشَ حين قال: «هي لا تحبك أنت. يعجبها مجازك. أنتَ شاعرها وهذا كل ما في الأمر».

قد تكون أنثاك رُهاماً تشق سيل رِهامك المتساقط فوق سماء بلادك،

وقد تكون حلماً بعيداً خائباً. قد تؤسس لك مستقبلاً عُمّد بالآلام والعذاب، وقد تكون حاضراً غائباً بعد حين، وقد تكون ماضياً غُمس بالدم. فاحذر المسافات القريبة قرب القلب من المرء، البعيدة بعد الغيم عن جرذ يخرق سطح سفينةٍ تغرق.

أنت الأعزل من كل شيء حتى نفسك، لا تملك إلا بعض كلمات تنثرها أمامها عسى تلقى جواباً يبقي لك على أملٍ يعينك فيما يجري من الأيام. لا تبنِ بيوتاً لنفسك فوق مشاعر عابرة للروح، في ساعة واحدة، لكنها ليست كساعة قيامة المسيح.

أنت المنصتُ لصوتِها عبر صورتِها. أنت المتألم من غروبٍ يشعرك بالهجران، ومن شروق يذكّرك بصرخات الضحية في وجه السجان. تفكر بها وتسكنها، لكن مقعدك متعب من اتكائك عليه طوال الوقت. تشهق وتزفر بقوة وكأنك هاربٌ منها إليها، تتقافز بين أوراقك كلصٍّ يتربص بالشرفات الخالية، فتملأ كأس فراغك بوجودها.

ليست مقدسة هي، بل حلمك، فانهض من سباتك يا أخي، واركض بكل ما أوتيت من عزم، لتلقى نورَكَ آخر الدرب. اركض نحوها بمحبة دون بذخ للكلام، اركض ولا تنظر خلفك.

سأنهي حديثي عن الحب الآن برسالة أكتبها لواحدةٍ أتعبتني. هي لا تُنسى مهما حاولت النسيان، كانت أجمل شيء حدث.

هما طريقان مفترقان، وأنا اخترتُ الطريق الواصل إليكِ، تلك الطريق التي لا يعبرها إلا القليل حيث تكونين في نهايته ويكون وجهكِ وضاءً هناك. آمنت بكِ وبأن أحد وجوه الإله هو وجهكِ.

أعلم أنك لا تحبينني الآن، لكن لن أكفَ عن المحاولة، فهناك أمورٌ في الحياة تستحق أن نقاتل من أجلها حتى النهاية... وأنتِ تستحقين العناء.

سأحبك وحدي كمتصوفٍ يعبد إلهاً في غابة.

قد لا نلتقي مجدداً، لكن أريدكِ أن تعرفي أني أحببتكِ طوال حياتي. أحببتكِ حتى قبل أن ألتقيكِ، فأنتِ جزءٌ مني، من شراييني، من دمي، من روحي، من كلِّ كلّي.

لا جديد تحت الشمس، طبعاً لا جديد، لكن وددت اختبار حبكِ. أَمِنَ الممكن معرفة شيءٍ لم تختبره قط؟! نعم، ولكن لن يكون جزءاً منك. أردت أن تكوني داخلي كما أكون داخلكِ، كما قلتِ في ذاك اليوم حين كنّا على السرير لا يفصلنا سوى شراييننا: «أنت جواتي».

في الشام أبديةٌ عشتها معكِ في لحظةٍ واحدة، اختصرتُ الأزمنة والأمكنة وأنا مرتاحٌ في حضنكِ.

قبل أن أولد كنتِ أنتِ، خلقتِ مع الكون. في تلك اللحظة وُجدتِ ووُجدَ حبي لكِ.

أحببتكِ.

هل ندمت؟ لا. بالطبع لا. كنتِ أفضل ما حصل لي على مرّ حيواتي السابقة واللاحقة.

أحببتكِ كما لن يفعل سواي.

فإنّ الذين يملكون أصدقاءً وبيوتاً وأراضي وأموالاً وأشياءَ غير ذلك كثيرة لا يستطيعون أن يحبّوا كما نحن الذين لا نملك شيئاً غير أنفسنا. وأنا لا أملك إلا نفسي.

هي رسالة وداع إذاً.

كوني بخير!

كيف أروي حكايتي دون أن أتحدث عن رامي؟ هو من كان قد قال: «فلسطين ما بينعاش فيها، فلسطين هي اللي بتعيش فيك، ومتلها الشام». قالها منهياً حديثاً دار بينه وبين رفاقه في ليلته الأخيرة قبل الأسر. رفض الفكرة التي طرحها أحدهم عليه للسفر إلى أوروبا. «كيف لي أن أسافر وأتخلّى عن هويتي؟ سينخفض إن سافرت عدد المطالبين بحق العودة!». رامي شابّ سوري، ليس بالهوية بل بالانتماء. عاش معظم حياته فيها، بعد أن ولد في ليبيا. أوراقه الرسمية تُثبت أصله الفلسطيني المصري. لطالما شكّل ذلك معاناة له في إثبات هويته. «شو بقول لولادي؟ ولاد مين إنتو؟ من وين إنتو؟». كانت هذه المشكلة أكثر ما يؤرقه، لكنه سيتناساها بلعبة نردٍ مع بعض من أصحابه، أو بحديث يمتد حتى مطلع الفجر، تتعالى فيه صرخاتهم مترافقة بأصوات كؤوس العرق.

يُشعرك بألفة غريبة عند لقائه. يكسر كل الجمود والحواجز لحظة التعرّف إليه. يُبادرك بقول مضحك. كأنه يعيش في مزج تام بين الضحك والألم المكبوت في داخله. لكن ألم فقدان الوطن والهوية لم يفقده الانتماء الدائم إلى الإنسانية. تراه يحمل بعض الأغطية لعائلة تشرّدت، أو يناقش أوضاع النازحين وكيفية مساعدتهم في جلسة ما، وقد تراه متطوعاً في إحدى المنظمات المحلية أو الدولية ليساعد بعض الفارّين من الحرب، كما حدث في حرب تموز 2006، حين هبّ كمعظم الشباب السوريين لنجدة من فرّ من اللبنانيين إلى سورية.

لا أعرف كيف أبدأ بالحديث عن رامي. لعلّ أبرز ما يميّز هذا الشاب

هو حبه لمساعدة الغير، أو ربما البيئة العائلية التي يخلقها بين أصدقائه تجعله شخصاً «مشتركاً» بين الكثيرين.

لا يختلف اثنان على شخصية هذا الرجل وقدرته على الانخراط في المجتمعات الجديدة، وقدرته على تكوين صداقات قوية في فترات زمنية قصيرة نسبياً، والتأثير في الأشخاص المحيطين به.

«لك يا أمي شو عم يعمل المسكين هلق، والله ما بيستاهل. يا رب تفرّج همّو متل ما فرّج همّنا يا رب». يلهج لسان إحدى السيدات الطاعنات في السن بالدعاء لرامي، ما إن تسمع أن ذلك الشاب صاحب الشعر الطويل قد اقتيد إلى المعتقل مؤخراً.

رامي، الشاب الضائع بين الهوية وعتمة السجن، لا بدّ أن يصرخ الآن ألماً، أو لولادة جديدة تُعلن خروجه إلى النور ثانية. ومن يفتقده الآن، بعض اللاجئين الذين عَمِل على مساعدتهم بكل ما أوتي من محبة، ضاحكاً، غير آبهٍ بالموت المنتشر حوله.

يُحدّثك عن مستقبل البلاد، كما لو أنه يراه بوضوح أمامه. لا يكفّ عن الحلم، يُنشد الأفضل، وينشر الأمل في محيطه. «الحلم واحد ما بيتغيّر، وما بموت». لا تعرف إن كان يحدّثك عن فلسطين أم عن سورية. رسم «حنظلة» يستقر فوق جدار غرفته، وخارطة فلسطين «الكاملة» لا تفارقه، هو الذي تطوّع قديماً في الهلال الأحمر الفلسطيني، فرع سورية. لكن نشاطه المستمر في القضايا السورية، منذ سنوات طويلة، وحديثه عن شوارع دمشق وحمص وسواهما، ينسيك فلسطينيته، ويجعله سورياً من القلب. يبني مستقبله بدءاً من حجارة داريا وشوارعها التي ترعرع فيها، إلى جرمانا التي انتقاها ليعيش شبابه هناك، ولا يستثني أصدقاءه الكُثر فيشركهم معه في الحلم.

رامي، ذلك الشاب الذي لا يمل الحب ولا الحياة، يقبع الآن في

سجونٍ لا يدخلها نور الشمس. لا شيء هناك سوى جدران عالية تكتب عليها اسمك وتاريخ وجودك هناك، إن عرفته. رامي تحت قبضة سجّان لا يرحم. رامي هناك الآن يحاول البحث عن مخاض جديد لحياة جديدة قد تأتيه في يومٍ ما، قريبٍ أو بعيد.

رامي الآن يبحث عن أغنيةٍ ينشدها، أو يحاول أن يتذكّر بعض الأبيات من قصائد شاعره المفضل محمود درويش، ليُسمعها لزملاء الزنزانة، وليذكّرهم بأن حق العودة إلى الحياة ما زال قائماً، رغم كل الظلام المحيط به.

حاولت جاهداً في السطور السابقة أن أكتب عنه بصفة محايدة. لكن كيف أفعل؟ أحاول عبثاً أن أكتب رواية «توصيفية» عن أحد أصدقائي، لكن اللغة تخونني. كيف يمكن للمرء أن يكتب عن أقرب الأشخاص إليه وأن يكون محايداً؟ لم أستطع. لعلّه فعل الاشتياق يصيبني، فأهرب منه، عسى ألتقي بعض الكلمات المبعثرة هنا وهناك، لكن من دون جدوى.

صديقي المرمي على أرضيةٍ ما في ظلام ذلك المكان الحقير، أشتاق إليك. أسهر كل يومٍ مع أصدقائك أو حبيبتك، ولا حديث لنا سواك، ما مرّ في حياتك وما لم يمر بعد، طعامك المفضل وجملتك الشهيرة في الطعام: «المهم الكمية مو النوعية!».

نتحدث عن حبيباتك السابقات وعن مغامراتك المجنونة، نتحدث عن كل ما لا يخطر لك في بال.

«صديقان نحنُ إلى أن ينام القمر».. يا رامي، كن بخيرٍ يا صديقي!

إن سألني أحدهم، لِمَ تكتب هذه النصوص؟ لن أعرف أن أجيب. قد أقول بأنها انفصامات اليأس والأمل تصيبني أنا المنتمي إلى جيل الثورة والغياب. ثم أستفيض في الحديث وأقول:

لأن اليأس خيانة صدحت حناجر هؤلاء الشبان في مخيّم اليرموك المحاصر بأصواتهم التي عانقت السماء فتغلبت على صوت الموت من الجوع. لأن اليأس خيانة كان صوتهم أعلى من صوت الموت. وهل للموت صوت؟

لأن اليأس خيانة كانت كفرنبل ـ صغيرة الجغرافية واسعة الفكرة ـ موجودة على الخارطة، قريبةً من حلمي. تراها تهمس في أذني: لقد شبعنا الكرامة.

لأن اليأس خيانة بقي الثوار مستيقظين متربصين على كل الجبهات خائفين من تقدّم العدو كي لا يقتل حلمهم بالحرية. لأن اليأس خيانة كان صوت رصاصهم أعلى من صوت رصاص العدو.

لأن اليأس خيانة خرج الأحرار في مظاهرات ووزعوا المنشورات ورسموا على الجدران عباراتٍ تخيف الديكتاتوريات الجديدة. لأن اليأس خيانة، لم يستسلموا.

لأن اليأس خيانة أستمر بالكتابة آملاً أن يكون لكلماتي صوتٌ يقضّ مضجع الظالم، ويريح الحرّ عندما يمر بعينيه عليها.

لأن الأمل خيانة حين يكون فائضاً عن الحاجة دافعاً إلى الموت من غير داعٍ. لأن الأمل خيانة حين نتمسك به دون وجه حق، كأن يكون لنا أملٌ

في تعقّل الأسد ورحيله من تلقاء نفسه، كأن نثق بقرارات دولية لمصلحة الشعب السوري، كأن نراهن على توقف الإسرائيلي عن قتل الفلسطيني.

لأن الأمل خيانة حين كان أملنا بثورة مدنية كاملة، فتعسكرت ثورتنا وحطمتنا قبل أن نتحطم. رغم ذلك استمررنا في الثورة على الظلم والقهر، فدمّرنا النظام بصواريخه.

لأن الأمل خيانة حين كان لنا أمل في إخوة الوطن يقفون في صف الحق لا الباطل، في صف الضحية لا الجلّاد، حين كان أملنا بأناسٍ يضعون البسطار العسكري على رؤوسهم ويمشون، حين أملنا ببيوت تحتضنها كما احتضنت صور الجلّاد على جدرانها.

لأن الأمل خيانة عدت إلى الواقع لأكتب ما أشعر به لا ما آمل به، فالأمل خيانة حين يكون فائضاً عن الحاجة.

بالمصادفة، وُلدت لأم عربية وأب كوردي، لأم شيعيّة وأب سني. بالمصادفة أطلقوا عليّ اسمي الكوردي صعب اللفظ، وبالمصادفة كانت أمي عراقية الأصل ووالدي سوري الأصل والمنشأ.

بالمصادفة وُلدت في دمشق، ولقرار من والديّ انتقلنا للسكن في القامشلي. لسبب وجود دكتاتور وحكم إعدام على أمي لم أرَ العراق، فاخترت أن أكون سورياً، إذ لا يربطني بالعراق إلا اسم أمي.

بقرار لا أعلم سببه عدنا إلى دمشق. لعلاقة بين أمي ومديرة المدرسة اختاروا مكان تعليمي الابتدائي، وبالمصادفة اختاروا مدرستي الإعدادية والثانوية. بالمصادفة دخلت إلى عالم الجمعيات متطوعاً، بعد أن تركت لعبة كرة السلة ولعب الغيتار، وبالمصادفة اخترت طريقي في الحياة.

درست في جامعتي بالمصادفة، قراري الصادق الذي لم يخرج بالمصادفة كان اختياري لعملي في الصحافة وصنع الأفلام، لكن بالمصادفة قابلت أناساً فتحوا أمامي الطرقات التي تعلمني أصول المهنة.

بالمصادفة ابتدأت الثورة، وبالمصادفة فعلت ما فعلت، وبالمصادفة هربت، وبالمصادفة عملت، وبالمصادفة تشردت، وبالمصادفة زرت ما زرت من البلدان، وبالمصادفة أعيش أنا الآن رغم كل الحزن.

لكنها ليست مصادفة أن أحزن على البراميل المتساقطة على داريا وحلب، وليست مصادفة أن أجوع «رغم شبعي» مع جوع المحاصرين في

حمص وفي الغوطة الشرقية، ليست مصادفة أن أتألم لألم فارس كفرنبل «رائد فارس»، ليست مصادفة أن أتجرد من كل الانتماءات الضيقة العرقية والدينية، ليست مصادفة انتمائي إلى إنسانية قد لا تسعني.

مصادفة ولدت ومصادفة سأموت، لكن لن أحيا بالمصادفة بعد الآن، فالكرامة ليست مصادفة، والحرية ليست مصادفة.

كيف ستكون رحلتك وأنت تعرف نهايتها؟

ستبقى عاجزاً لا تعرف بما تفكر رغم وضوح الصورة أمام عينيك. ففي منفاك لا شيء لك إلا ليلٌ طويل وقيود.

في المنفى لن تجد أذناً تتلقى كلماتك، فلا شيء هنا سوى الفراغ غير المحدود. هنا لن يكون لك حكايات جديدة كل حين. قصة واحدة تتكرر في هذا المكان. شوقٌ ورسائل لأمك لا تتلقاها إلا في ما ندر.

في المنفى تملُّ من أوجه النساء الأجنبيات، وتشتاق لوجه حبيبتك الذي لن تراه إلا عندما تخلد إلى النوم. ما أكثر النوم في هذه البلاد!!

في المنفى تبحث عن حائط تخط عليه اسم حبيبتك فلا تجد فراغاً يتسع لك. تبحث عن شارع يستقبل جنونك. تتلمس الجدران وتصيح، لكنك لن تشعر بتلك الحنيّة التي فقدتها عندما بكتْ أمك في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها.

في المنفى تغني بصوت عالٍ، لا أحد يطلب منك السكوت، لكنك تملّ من نفسك فتتوقف عن الغناء وتبكي.

في المنفى، لا أحد في المنفى إلاك أنت.

أما الغياب فلم نختره بأنفسنا، بل اختارنا هو ليدهن جدران الزنزانة بأسمائنا، أو لنقل ليرمم جراح الزمن الذي يضيع منّا.

في الغياب لنا أغنية نرددها بين الحين والحين نداوي بها آثاره، آثار الغياب، وكم صعبٌ زوال تلك الأشياء، لا لشيء بل لأنه نحن، ماضينا وما ينتظرنا.

في الغياب لنا قصة نحكيها لأطفالنا إن عشنا للقائهم، أو إن هم أسرعوا لنجدة ما تبقى من مستقبلنا. قصة عذاب وألم نرددها عليهم قبل أن يناموا حتى يملوا هم من تكرارها على مسامعهم.

في الغياب لنا رسالة نبعثها لحبيباتنا، قد لا تصل إن كنت مختفياً في الظلام، وقد تصل مشفّرة برموز لا يعلمها سواكما إن كنت منفياً. تقرأ حبيبتك حتى تتعب من البكاء وتنام.

في الغياب لنا أسطورة كاذبة، فكم ستسمع بأنك بطلٌ وكم سيمدحونك، لكنهم لن يمسّوا يوماً ذاك الألم والجوع الذي عشته. ستروي لهم تفاصيل لن يعرفوها، ولن يعرفوها، فهم لم يعرفوا الغياب.

في الغياب لنا قصيدة، نكتبها على جدارٍ ما، قد يكون حائط السجن وقد يكون جداراً مرمياً تحت جسر موجودٍ فوق نهر يمتد إلى البعيد. نكتب ونخطّ عسى أن يتذكرنا أحد العشاق في ليلة ما ويقول: يا له من أنا!

في الغياب لنا معجبين ومعجبات، لكن عندما نعود لا نراهم غالباً، يختفون، لا أدري لماذا؟ ربما لأن الخرافيّ لا يحق له أن يكون موجوداً على الأرض أمامنا، لا يمكن أن يكون بطلنا مجسداً بشكل ما علينا أن نرسم له شكلاً كأشكال الملائكة لا البشر.

في الغياب لنا... ليس لنا إلا نحن.

في الغياب نحن!

*«للكوردي ملامحُ*
*كأنها تجلياتُ الوحي...*
*صوفيةٌ كلماته، وإن كفر*
*خضراءُ عمامته، إن سَكِر*

*تجاعيد وجهه، كالأرضِ*
*وإن سجدَ للسماء دون الأرضِ.*

*هكذا...*
*يتجلى راقصُ التصوفِ ع الريح»*

**«عدنان أحمد»**

أنا الكوردي لا شيء يحضنني إلا سماءٌ وتجليات أرواحٍ تصعد إلى الإله، لي ملامح لا يعرفها إلا الأنبياء. رقصي صلاة وغنائي عبادة. أرتل الكلمات ترتيلاً فيسمعني الوحي ويقول: «يا لك من وحي مُنزل».

«ليس للكردي إلا الريح»، لا وطن له إلا في الجبال العالية، سقاها من دمائه طوال القرون الماضية.. والآتية. لا نجيد نحن الخبث، طيبون بطبعنا ومحبّون «كما الآخرين»، عاشقون بالفطرة، متآخون كما جسد واحد. نقترب من الغريب لنكون إخوة، فيرسلنا إلى ناره، ونبقى غريبين عنه. نُتهم بالتطرف، لكن حقنا في الحياة أكبر من الاتهام.

ما ذنبي إن خُلقت كوردياً مصادفةً، وخُلقتَ أنتَ من ملّة أخرى،

لا ينبغي لي كي أعيش معك أن أنسى مسقط رأسي وثقافتي وتراثي وتاريخي. لي حقٌ في العيش أنا الكوردي.

نحن جيلٌ استثنانا التاريخ فصنعناه. جيل نشأ على هزائم الجيل الذي سبقه. نحن جيل آواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات «من هم في العشرينيات الآن»، جيل الكذبات المصطنعة.

نحن جيلٌ خلقنا على أوهام ألوهيّة حافظ الأسد، والدين الذي لم نفقه منه شيئاً، نشأنا على كذب النضالات وأحلام الثورات السابقة، نشأنا على حلم بيروت عاصمة النضال والمثقفين وعلى أغنيات مارسيل خليفة وزياد الرحباني وسميح شقير، كبرنا ونحن نحلم بأن نكون فدائيين فلسطينيين نحارب الاحتلال، أو أن نكون عنصراً يحارب مع تشي غيفارا.

كبرنا ونحن نمجّد الماضي دون أن يكون لنا حاضرٌ أو مستقبل. إلى أن اكتشفنا في وقت متأخر أنّ كل ما قيل لنا كذبٌ وأنّ معظم المناضلين خانوا نضالاتهم «زياد الرحباني ليس آخرهم»، وأنّ من مات من أجل قضية، مات؛ لأن من أكمل المسيرة باع القضية. اكتشفنا أنّ السياسة كذب وأنّ حافظ الأسد مات لكنه ما زال يحكم من قبره.

نحن جيلٌ اكتشف أنّ التاريخ الذي لقّنونا إياه كذب. لذا خلقنا تاريخنا، وصنعنا ثوراتنا.

نحن جيلٌ يصنع التاريخ الآن، لا في الأمس ولا غداً.

إن روى أحدهم حكاية الثورة بعد مئات الأعوام فكيف سيرويها؟!

قد يقول:

كان في أرض الشام، ملكٌ له شأنٌ وسلطان، يدّعي الطب والعلوم، ومداواة الأجساد والنفوس، لكنه والله أعلم، كاذبٌ أخرقٌ محتال. في نهارٍ من تلك النهارات، خرج خمسون نفراً إلى الطرقات، غنّوا لأرضٍ قرب أرض الشام، وهي مصْرُ، لا يتيه سائلٌ عنها، فهي للمشرق عنوان.

لم يعجب الطاغيةُ أمرَ هؤلاء الفتيان، فطردهم وأعاد الأمن والأمان. فخرجوا ثانيةً بعد أيام، يغنّون لأناسٍ سقطوا غرب مصر، في أرضٍ كانت تُسمى ليبيا، وهي مدنٌ أربعٌ وصحراء. كان فيها ملكٌ أخرق جبان، مجنونٌ، أصبح مضرباً للأمثال الآن. إذ نقول: كما لو كنتَ مُعمّر. ومُعمّر هو اسم ذلك الملك. خاف سلطان الشام، ولاحق هؤلاء الشبان، ويقال بأن أعدادهم بلغت ثلاثمئةٍ ونيف من النساء والرجال. في منتصف شهرٍ كان اسمه آذار، خرج عددٌ من الأحرار، أرادوا النور ولعنوا حُكام الظلام، فضربهم جند السلطان. وبعد عددٍ غير كثيرٍ من الأيام، كتب أطفالٌ على جدارٍ «الشعب يريد إسقاط النظام» والجدار كان جنوب دمشق الشام، في أرضٍ تدعى درعا، أصبحت لاحقاً للأحرار عنوان.

جُنَّ جنون الطغيان فزجّ الصغار في السجن، واقتلع أظافرهم وفعل كلَّ بشعٍ، مما لا يدخل في الحُسبان. فثار الناس في أصقاع البلاد، حيث كانت تمتد من أرض حوران في الجنوب إلى أرض الأكراد وجبالهم في الشمال. لم تبقَ مدينةٌ أو قريةٌ إلا وكان فيها شجعان. ارتعب ذلك

الملك، الذي كان اسمه الأسد البشّار، فأطلق جنده في البلاد يقتلون وينكّلون ويعيثون فساداً، وكان بين جنوده رجالٌ يُطلق عليهم اسم شبّيحةٍ أو شُبّحان، واللّه أدرى. بقي الناس ما يقارب السنة حسب تقويم تلك الأيام، بلا ماءٍ ولا طعامٍ في كثيرٍ من الأحيان، قُتل منهم الآلاف وفُقد مئات الآلوف، لكنهم لم يعرفوا للذلّ طريقاً، وحددوا لثورتهم عنوان «حريةً نريد وكرامةً وعدالةً لبني الإنسان». وقيل: لم يبقَ بيتٌ إلا وفيه جريحٌ أو قتيل (وكان يُسمى شهيداً) أو سجينٌ عُذِّبَ، أو مسافرٌ لأرضٍ أخرى.

اشتدَّ الأمر على السلطان، فلم يَدر ما يفعل، ولم يكن لحاشيته أي قدرة على ضبط الشعب، فقرروا القتال حتى النهاية، فيما الناس لم تحمل عصاً ولا حجراً ولا سلاحاً، بل قالوا: سِلميّةٌ هي ثورتنا مهما دفعنا من الأثمان.

وانتهى الأمر بذلك الطاغية الجبان، بأن هرب وراء البحار، لكن الشعب حاكمه في محاكمةٍ عادلةٍ وأنزلوا به عقوبة الإعدام. وقد حدث ذلك في أحد الأعوام الأولى من بدء الألفية الثالثة، وذلك اعتماداً على ميلاد رجلٍ كان يُدعى عيسى النبي، ويُكَنى بالمسيح.

عدت إلى وحدتي، التجأت إلى أوراقي. سأكتب من جديد، ماذا عساي أكتب؟ مسرحية؟ سأبتدع مسرحية أعتمد فيها على تلك القصيدة التي قرأتها منذ مدة لنزيه أبو عفش.

سأبدأ من مسرحٍ مظلمٍ تماماً، تظهر بقعة ضوء صغيرة في الجانب الأيمن من المسرح، وتظهر فتاة أنيقة وهي المعلِّقة، وتبدأ الحديث بنبرة هادئة:

إن أحداث هذا العمل المبكي الذي سترونه بعد قليل قد حدثت في عام من الأعوام وفي مكان من الأمكنة، ذلك أنه إجمالاً لم تتغيّر الأحوال العامة في العالم الذي نعيش فيه فوق كوكب الأرض ضمن المجموعة الشمسية وفي نطاق مجرة درب التبانة، التي هي طبعاً جزء صغير لا يتجزأ من هذا الكون الفسيح، كما أنه لم تتغيّر جلسات التعذيب المقامة منذ بدء العالم البشري المتحضر، إلا بالأدوات طبعاً.

ملاحظة هامة ينبغي قولها ألا وهي أن أي تشابه بين شخصيات هذا العمل والواقع لم يكن بمحض المصادفة إطلاقاً، بل كان مقصوداً، فالشخصيات الواردة هنا يمكننا رؤيتها في الشارع.. في العمل.. على الأرصفة.. في المنازل.. أو على التلفاز، أو في أي بقعة من بقاع الأرض لذا وجب التنبيه.

شكراً.....

(تنطفئ بقعة الضوء بالتدريج بينما تبقى الفتاة واقفة مكانها ويرافق ذلك موسيقا حزينة، المسرح مظلم من جديد، تبدأ موسيقا

تُظهر الرعب، يبدأ ضوء خافت بحيث لا يمكن رؤية ملامح الأشخاص فوق المسرح، يجلس على يسار المسرح رجل يرتدي ثياب الجيش وأمامه زجاجة نبيذ موضوعة فوق طاولة خشبية دون أن تظهر ملامحه يبقى طوال الوقت يشرب النبيذ ويدخن، في الخلف رجل معلّق بحبال، وعلى اليمين يوجد حبل المشنقة).

(تظهر بقعة ضوء قوية في الوسط حيث يظهر رجل ذو ثياب مقطعة وتظهر عليه آثار الضرب والتعذيب، ويبدأ الحديث بصوت مرتفع ثم ينخفض ذلك الصوت تدريجياً، ويبدأ الرجل المعلّق بالحبال بالقيام بالحركات الإيمائية التي تظهر الحالة النفسية للرجل ذي الثياب المهترئة، كما تتوقف الموسيقا عندما يبدأ الرجل بالحديث).

الرجل ذو الثياب المهترئة: آه.. آه.. آه..

ما الذي تنتظره في بريد الليلة يا سيدي؟ غير الوردة، غير ورقة النعي ذات الحروف المزركشة، ما الذي تنتظره غير التلفيق الجميل والقبلة الزائفة، ما الذي تنتظره غير أنك.... (بلطف) عساك بخير يا سيدي؟!

(بصوت مرتفع) ما الذي تنتظره في بريد الليلة..... يا سيدي؟ قديسين على الورق؟... سلحفاة مقلوبة على ظهرها؟.... قيامة الموتى؟؟

ما الذي تنتظره؟... لعلك تستطيع أن ترى ما يحدث هناك على الطرف الآخر من العالم.

ما الذي تنتظره غير الديدان... يا سيدي؟

ما الذي تنتظره غير المنشدين.. يا سيدي؟

ما الذي تنتظره غير الكاميرات المسدّدة، والصحف عديمة الفطنة، لعلك سيدي، تستطيع بحيلةٍ ما، بقلب نبي ما، تستطيع رؤية الموتى تطول لحاهم من الخوف والبرد ونفاد الصبر.

(بلهجة المنبّه على أمرٍ خطير) الموتى سيدي يختصمون على وعد سماوي وعلى حجرٍ يبكي، الموتى المكرمون، موتى الكآبات واليأس وموتى..... (بلطف) عساك بخيرٍ يا سيدي! موتى عدم الله، عدم العدو، عدم بطلان ما هو باطل، (بغضب) الموتى كافةً، الموتى الحقيقيون، البلهاء، قصيرو النظر، والمحنكون أيضاً يا سيدي، والأبرياء أيضاً يا سيدي، والذين يجهلون أنهم ـ بعد موتهم ـ صاروا أبطالاً ليوم في السنة على مدى انقلاب عسكري كامل.. لعلك سيدي تستطيع.. لعلك ترى.. لعلك.. (بلطف) عساك بخير يا سيدي؟!

هل تعلم يا سيدي بأنه مرير، نعم مرير، إنه واقع مرير يا سيدي.. صدقني.. إنه كذلك.. واقعٌ مرير.

ما الذي تفعله سيدي؟ تنتظر أحداً لا يجيء.. لا يجيء سيدي.. فاشرب نبيذك بهدوء وقل: إن هذا ممتع، إن كنزك كله يا سيدي في كأس النبيذ، فاشربه على مهل وقل: يا للذّة!

(بلهجة المحذّر) لا يا سيدي.. انتبه.. لا.. لا تستقرئ النافذة.. كلا ولا تستوضح الهواء ولا تصدّق أبراجنا الفلكية فلا الجوزاء ينفعك ولا السرطان، سيدي انتبه لا تصدّق الذين قالوا: انتظرنا وسنأتي. لا يا سيدي، لا أحد سيأتي.. صدّقني، من عادة الناس الرحيل ولا أحد يعود سيدي، لا ولا أحد يصدق سيدي، لا أحد في بريد الوقت، لا أحد في بريد.. سيدي.. لا أحد.. ولا تؤجل شيئاً سيدي، كن على عجل وسريعاً وجاهر باليأس، قل حزنك فور وقوعه، وقل دمك فور اندفاعه، وقل قلبك فور ملامسته النار، لا تؤجل شيئاً سيدي، لا تؤجل شيئاً سيدي، لا تؤجل شيئاً، فالله لا ينتظر سيدي، فربّ كلمة صغيرة تنساها قد تفعل أموراً كثيرة كاندلاع حربٍ في أطراف الدنيا بسببك سيدي، ربّ كلمة.... ربّ رصاصة.... ربّ....

أنا حزين اليوم... فهل تعرف ما الذي أعنيه سيدي؟

مريرٌ.. سيدي، صدّقني إنه كذلك، إن واقعنا مرير يا سيدي، وأنا.... أنا ؟ أنا؟.... آه أنا.. أنا لا أعرف شيئاً، أعني لكن.. لكن أعرف إنه مرير يا سيدي.

لا مكان لنا سيدي.. أقصد أمثالي من الناس لا مكان لنا في هذا المكان لهذا نتنقل من وقتٍ إلى آخر.. نتنقل من مكان إلى مكان آخر، لهذا... فقط لهذا يا سيدي قلوبنا تبقى مبعثرة يا سيدي.

أنت سيدي.. أنت الذي لا يعيبه شيء.. أنت يا سيدي الذي لا أحد يطالبه بدينٍ مستحق أو جريرةٍ منسية أو حتى بزكاة، لا أحد يطلب يا سيدي، لا قلبك من صخرٍ يا سيدي، ولا يبكيك الحب سيدي.

أنت سيدي.. أنت المسكين.. العادي.. المندفع.. أنت الذي أحبُّ له الخير سيدي وأتحاشاه.. أنت خلف الطاولة تحت القبعة المرصعة.. وأنا أصلي تحت قدميك. أنت من يقف في سوق الخضار صباحاً مرفوع الرأس في الطابور حياً كإنسان بجوربين وسترة. أو لا... لا سيدي أنت لا تقف في طابور سوق الخضار سيدي.. أنا من يقف.

أنت سيدي.. أنت الذي تظن بي الظنون وتشيح بوجهك حين ترى خلقتي.

سيدي أنا لست ماسونياً كما تظن سيدي، ولست يسارياً دارجاً، لا ولست حتى سياسياً مخضرماً سيدي، أنا لست أرثوذكسياً ولا كاثوليكياً سيدي، لست شيعياً ولا سنياً سيدي، كما تتوهم.

سيدي نحن لا نجد وقتاً لنفكر بمثل هذه الأمور، فأنتم من يفكر بأدياننا وانتماءاتنا، وتركتم لنا التفكير بلقمة العيش.

سيدي.. حتى.. حتى لست قاتلاً ولا قديساً، لست الذي جلد السجين حتى مات ولست أنا الخائن سيدي، ولست أنا من قاد الانقلاب الأسود سيدي، ولست الذي ولا الذين ولست أحداً سواي.

أنا، مصادفةً ولدت في ذلك اليوم، السبت الأسود يا سيدي أو ربما هو الأحد، الأحد الأسود يا سيدي، في شهرٍ ما يا سيدي، تموز الأسود، ربما، أو هو ربما أيلول، أيلول الأسود سيدي، لا.. لا هو ربما آب. (بسرعة عالية) في الشهر السابع في الشتاء، لا لا في حزيران، السنة، الصباح، العصر، العصر الأسود، الأسود يا سيدي...

(بعض الأخيلة تظهر على يمين المسرح حيث يشير الممثل إلى هناك)

(بلهجة الاستهزاء) انظر سيدي لقد ظنوا بي الظنون، مثلك يا سيدي.. أتعلم يا سيدي إنهم يسمّونني الملاك ذا القلب الأسود.. أنا ملاك يملك قلباً أسود.. فتصوّر يا سيدي!!!!!

ما مرّ يومٌ إلا وجاؤوني بعذابٍ جديد، فهل عرفت الآن ما هو المرير.... يا سيدي؟

سيدي لقد قلت لهم إن هذا كفر. فقالوا بأنني متطرف يا سيدي، تخيّل أنا متطرفٌ يا سيدي.

لقد كان يومي مريراً وكان الرجال مستلقين على رصيف الصباح منقبضين، تعساء، مقطبي القلوب، لا يفكرون إلا بكوارثهم ويأسهم، إنّ أيامهم مجردة من الخير يا سيدي، لقد كانوا مقرفصين على الأرض ومتكئين على الهواء ينتظرون رسائل الله وزلازله، أو حتى منتظرين الجحيم الذي لم يعد صالحاً لإيواء الموتى.

كان يومي مريراً سيدي، وكان لابدّ لك أن تركل أحداً وأن تخلع قلب أحد، فركلت خاصرتي وخلعت قلبي من صدري... مرير يا سيدي... أنا لا أعرف أي شيء يا سيدي... ولكنه مريرٌ.. يا سيدي.

سيدي إن خير خبرٍ تقوله للناس هو ما تعتقد أنه سرك الشخصي، وسري أنا هو الصمت يا سيدي.

سيدي إن أعداءنا يطاردوننا وأعداؤهم أيضاً يطاردوننا والمقاصل أيضاً تطاردنا ويطاردنا القناصون في الأماكن المهجورة وتحت خيمة القوانين وفي الكوابيس وعلى حدود المقبرة..

سيدي هناك رصاص كثير.. رصاص.. رصاص وموتى.. موتى كثيرون، أكثر من الأحياء، إن أجسادنا تتألم سيدي وأرواحنا تدمع.

فليكن، إننا مهملون وليكن إننا كسالى وليكن إننا بهائم.. وليكن كل شيء، فلنكن جاهلين لمتعة القصائد وغير عارفين مغزى الدعابة ولا طلاوة التأمل وليكن ما نحن عليه.. لكن أجسادنا تتألم سيدي وأرواحنا تدمع.

لماذا يا سيدي علينا أن نمشي مرفوعي الرأس متباهين بأنفسنا فخورين بأوطاننا؟

لماذا يا سيدي إن رأيتنا تظن بأننا أبطال نستحق الأوسمة بينما نحن خائفون.. مرتعدو القلوب من الهواء والحركة والعيار الناري؟

لماذا يا سيدي يتوجب علينا أن نستيقظ مبكرين ونتابع مزاج التقويم؟ لماذا علينا أن نبعث أولادنا إلى المعارك؟ لماذا يا سيدي ننسى أن نسامح الآخرين؟

لماذا يا سيدي علينا أن نبتسم ونحن مفلسون؟ لماذا يا سيدي نشتري الكراسي الجديدة ونحن لا نملك المنازل؟ لماذا يا إلهنا؟ لماذا؟... لماذا؟

يا سيدي هل خطر لك أن تسأل ولو لمرة واحدة ما الذي تعنيه جملة «إنّ صدري منقبض»؟

سيدي لا غفران للقتلة.. حتى النبات يقول ذلك.

لا غفران للسجون.. حتى الفئران تقول ذلك.

يا سيدي العظيم لا غفران لأن ينام إنسانٌ جائعاً.. حتى الكلاب تعرف ذلك.

ينبغي أن أتوقف عن الكلام الآن والذهاب إلى النوم لأنه عليّ الاستيقاظ باكراً، فثمة مشنقة تنتظرني... اللعنة!!

سيدي آهٍ يا سيدي

سيدي إن أفظع من الجنون ما نحن فيه

وأفظع مما نحن فيه ما ينتظرنا

وأفظع من كل شي سيدي شيءٌ ما.

(يقوم الضابط من مكانه ويتجه نحو الفقير، يقف الضابط أمام الفقير يصفعه على خده ويخرج، يبدأ الفقير بالبكاء مع انخفاض الإضاءة تدريجياً حتى يسود الظلام).

أعود إلى رشدي، ما الذي أكتبه هنا؟ أمشي ببطء نحو شباك غرفتي، فإذا بصوت امرأة تنتحب يتقاطع مع صوت المؤذن الذي يناجي ربّه بخشية. أصواتُ رصاصٍ تأتيني من بعيد. نظرات أطفالٍ ممتلئة بالخوف تتلاقى مع نظرة القناص الذي سرق قلب فتىً آخر منذ أقل من دقيقة.

لا أدري ما الذي يحدث هنا.

أمٌّ احتضنت طفلتها خوفاً من أن تسرقها الحرب. لكنها لم تدر أنّ الرصاصة قد سرقت ابنتها وهي في حضنها جالسة، دون أن تأخذ تلك الطلقة الإذن في الدخول إلى الرأس مباشرة.

مستقبلٌ حائرٌ هنا، وتاريخٌ لا يُذكر مِنه شيء، وحاضرٌ تائهٌ في جنباتِ المكان.

الجندي يتربص بأعدائه، والطفل يركض بأقصى قدرته ليَعبُر إلى الطرف الآخر دون أن تصيبه رصاصةٌ ما، ودون أن يفقد بعض أرغفةٍ من الخبز الذي حصل عليه بعد وقوفه لأكثر من ساعة في ذلك الطابور الطويل.

أصواتٌ تتعالى من هنا وهناك، ولا شيء في المكان غير الدمار المصنوع بقذائف مدفعية كانت قد دكّت الحيّ منذ قليل. وجثة، يظهر طرفٌ من أطرافها من بعيد، وأخرى ما زالت متمسكة ببقايا الروح التي تخرج من جسدها.

طاولة وكرسيان محطمان في الزاوية مستلقيان. ربما كانا مقعدين

لحبيبين يتفقان على أسماء أولاد المستقبل الذين لن يروا النور، ووردة ما زالت محتفظة ببقايا أوراقها رغم كل هذا الألم المحيط بها.

كيف ينسى ذلك العاشق لقاءه مع محبوبته الذي لم يكتمل، لأن الرصاص كثيفٌ عند منعطف منزلها؟!

الموت يلفّ الأجواء، ورائحة الدم تزكم الأنوف، وبقايا من الأبنية ما زالت واقفة ولم تلقِ بالاً لأصوات الدمار العالية القريبة أكثر من قلبٍ إلى شريانه. وكأني بها تقول للمدّمر: سأتلقى ضرباتك، لكنني سأبقى واقفة رغم ضرباتك، وأنفك.

عيونٌ تبحث من خلف الجدران عن مهرب، وعيونٌ أخرى تبحث عن فريسة.

إذاً، تلك هي حكاية الحيّ الذي أعيشه. بئس الحياة هي هنا.

لأتحدث قليلاً عن أبو فهد الميداني. رفيق الحرب، وزميل المتاعب والقذائف. أبو فهد كان نائماً حين ضرب صاروخ منطقة عين ترما التي يقطن فيها حالياً، قام فزعاً وركض إلى الشرفة، نظر إلى الشارع ورأى أشلاء الأطفال متناثرة هنا وهناك، صرخ بصوت عالٍ: «الله أكبر». نزل مسرعاً أدار سيارته، المرسوم عليها شعارٌ للجيش الحر، والمكتوب تحتها «أحرار حي الميدان المجاهد»، أسعف بعض الجرحى إلى أقرب نقطة طبية.

هو أبو فهد، قناص أحد ألوية الشمال، خدم في حلب سبعة شهور، عاد «للجهاد» في مدينته «دمشق»، لأنها أولى به، حسب قوله. أراد مع أخيه وبعض أصدقائه تشكيل كتيبة مستقلة لكن قلة الدعم حالت بينهم وبين تشكيل الكتيبة. كان قد نشأ في بيئة محافظة ضمن أحد الأحياء الدمشقية القديمة، والده شيخ الجامع، لذا كبر في خدمة الجامع والناس، وهذا ما أثر على شخصيته وعلاقته بالكتائب المقاتلة. كنت تراه عند قائد كتيبة ما يخدمه بكل ما أوتي من محبة، ومن ثم عند مجموعة أخرى يصلها بأحدٍ ما لجلب السلاح اللازم لمعارك الجبهات، أو كنت تراه في سهرات ثورية يغني لهم ويُنشد بصوته العذب. هو من أتباع الطريقة الصوفية لذا تراه يحفظ العديد من الرباعيات والسباعيات يحوّر معظم كلامها لتصبح أغاني ثورية، حتى أنه كان يتغنى بالحب والنساء رغم تديّنه الظاهري.

يذكر لي تفاصيل انضمامه إلى الثورة وكيفية اعتقاله في المرات

الخمس من عام 2011 (أطولها كان عشرين يوماً)، وأنّ حمله السلاح كان رد فعل على الظلم الذي طاله رغم عمره الصغير نسبياً «كان يبلغ السابعة عشرة حين بدأت الثورة في آذار 2011». رغم سنوات عمره القصيرة وتجربته الصغيرة في الحياة، كنت تراه يقود مجموعته بحزم ويمارس المهمات القيادية بشجاعة، يتصدى للمصاعب، ويتحمّل مسؤولية «رجاله» وعائلته حين نزحت من حي الميدان الدمشقي إلى حيث «يجاهد» في إحدى بلدات الغوطة الشرقية.

والدته أمرأة طيبة، وأخته صغيرة، كانت تختلس النظر إلى الرجال وهم يهمّون بالخروج وتتعلق نظراتها بأخيها، تراه أحد أبطال الأفلام ربما. والده شيخ جليل من أشد الأوفياء للطريقة الصوفية وللثورة السورية. ضحى بولدين يخدمان في صفوف الجيش الحر، والآخر يعيش خارج سورية منذ فترة طويلة. كان الشيخ يدعو لنا طوال الوقت، لم يكن يستطيع فعل شيء آخر بسبب جلطتين أصابتاه أثناء اعتقالين لابنه الصغير، كما كان يردد بعض الأشعار لشيخه الرفاعي، وأخرى ألّفها هو «لم تُنشر وسمعها القليل من الناس» استطعت نقل بعضاً من هذه الأبيات إلى دفتري:

«أستودع الله أولادي وأمهم
وجيشنا الحرّ والثوار والبلدا
أستودع الله قوماً كنت آلفهم
والدينَ والمال والإخوانَ والجسدا
أستودع الله قرآناً رُزقتُ به
فهو الحفيظُ لما استودعتُه أبدا».

أبو فهد ليلاً ليس كما هو نهاراً، كان يعيش قصة حب مستترة، لم يكن يجرؤ على البوح بها لأحد. كان يلج الشبكة العنكبوتية من هاتفه المحمول

ويدخل إلى إحدى شبكات التواصل الاجتماعية ليحدّث حبيبته النازحة إلى منطقة سورية أخرى. كان يستشيرني كل مساء عن الطريقة التي يتوجب عليه الحديث معها، لأني الأخبر في هذه الأمور كما كان يظن. حبّه كان عذرياً. في مساءات أخرى كنا نلعب مع بعض عناصر المجموعة بأوراق اللعب «تريكس»، كان ينتفض غضباً حين يخطئ شريكه، وكان يخفي الأوراق حين يشعر بأن والده قد اقترب «لأنو لعب الشدة حرام».

أبو فهد ليس مقاتلاً فحسب، لم يخرج ليقتل، ولم تكن الحرب هوايته. هو شاب سوري كغيره من الشباب، تتحكم مشاعره وعواطفه بأفعاله، لا أهداف واضحة لقتاله، سوى دفع الظلم، ينساق مع الأحداث، لا يستطيع الرجوع إلى بيته الآن، ينتظر سقوط النظام كمعظم السوريين، ويناضل ليستمر بالعيش رغم قوله المتكرر: «الله يطعمنا الشهادة».

وهنا يأخذني الحديث إلى أبو محمد المقدسي، صديقي الجميل.

لا يختلف أبو محمد المقدسي كثيراً عن بقية زملائه في كلية الإعلام في جامعة دمشق. فهو يسعى جاهداً إلى إيجاد منبر إعلامي يساعده في تكوين شخصيته الإعلامية. تدرّب منذ سنته الجامعية الأولى في العديد من المواقع الإلكترونية السورية بغية تطوير خبرته الإعلامية والصحفية. ومع بدء الثورة كان المقدسي في سنته الجامعية الثالثة، شارك في مظاهراتها المبكرة في دمشق وريفها.

ينحدر أبو محمد المقدسي ـ وهو اسمه الإعلامي الذي كان يطلّ به على القنوات الإعلامية المختلفة ـ من عائلة فلسطينية تعود جذورها إلى مدينة عكا. وُلد ونشأ في مخيّم اليرموك جنوب العاصمة السورية دمشق. ينتمي إلى أسرة متوسطة الحال محافظة نسبياً. الوالدان يعملان في شركات حكومية، أخ مهاجر في أستراليا وأخت مهاجرة إلى الخليج.

تمحورت حياة أبو محمد المقدسي حول الثورة السورية منذ بدايتها،

فعمل في شتى المجالات الثورية والإغاثية والإعلامية، وساهم في تشكيل العديد من الكيانات الثورية لعلّ أبرزها هو «اتحاد شبكات أخبار المخيّمات الفلسطينية» والتي كان متحدثاً باسمها. كان جلّ اهتمامه هو مشاركة الشعب الفلسطيني في سورية بالثورة وما يترتب على ذلك من نتائج حالية ومستقبلية. كان يرى أن الشعب الفلسطيني المقيم في سورية هو جزء من الشعب السوري ممن عانوا الظلم والاضطهاد في ظل نظام الأسد. «مثلي مثل جميع الفلسطينين أحسّسنا بأنّ نظام الأسد يتاجر بقضيتنا لقمع الشعب السوري» يقول المقدسي. «تحرير القدس لا يمرّ من درعا» جملة يردّدها الناشطون الفلسطينيون كثيراً، وهو ما يوافق عليه أبو محمد.

لي تاريخٌ مشترك طويل مع أبو محمد المقدسي، فهو زميل الدراسة في ثانوية «جودت الهاشمي»، ومن جملة ما أذكر من «مغامراتنا» أنه كان يجلسني على مقعد الأستاذ التي يوجد خلفها صورة الرئيس «بشار الأسد»، يجلسني كلما أراد رمي الصورة بشيء ليس ذا قيمة، كان يخطأني متقصداً أن يصيب الصورة لكن يظهر لمن ينظر إلينا بأنه يرمي تلك «الزبالة» عليّ وليس على الصورة. وحين وصلت إلى دمشق في بداية عام 2013 استقبلني «خبأني» أبو محمد المقدسي في منزل عائلته رغم ما يترتب ذلك عليه من مخاطر قد تصيبه أو تصيب عائلته بسبب وجود المنزل في منطقة تُصنف بأنها منطقة أمنية. كما حاول إدخالي إلى مخيّم اليرموك حين كان المخيّم يقبع تحت حصار جزئي آنذاك.

شكّل أبو محمد مع فاروق الرفاعي «المتحدث الإعلامي لمجلس قيادة الثورة في دمشق وريفها» ثنائياً ذاع صيته في مخيّم اليرموك. فالرفاعي «وهو اسمه المستعار» كما المقدسي، لم يوفر جهداً يقدمه للثورة. كما لم يدّخر هو وأبو محمد المقدسي نقداً يوجهانه إلى الثورة حين تُخطئ

كما فعلا حين أدخل الجيش الحر مخيّم اليرموك على خط الجبهة مع النظام وهي كانت «منطقة لجوء ونزوح» كما قال المقدسي، كما انتقدا تجاوزات الجيش الحر في مخيّم اليرموك، مما دفع بعض الفصائل إلى تهديد المقدسي بالتصفية والقتل. وإذ كان أبو محمد يحاول أن «يصحح المسار» بما يقوله ويكتبه، وذاك لمعرفته أن صوته يُسمع في أوساط الناشطين الفلسطينيين السوريين، فكان ينشر تارةً باسمه الحركي وتارة باسمه الحقيقي (لم يرغب أن أكشف عن اسمه هنا).

أما اسم «أبو محمد المقدسي» فله قصته. حين خرج على قناة الجزيرة متحدثاً للمرة الأولى عن أوضاع مخيّم اليرموك انتقى اسماً فلسطينياً، وهو «وائل الفلسطيني» فلم تقبل القناة لأنه لا يحمل طابعاً إسلامياً، وبعد حوارات بينه وبين القناة استقروا على اسم المقدسي ذو الدلالة الإسلامية الفلسطينية في آن.

«لأنه حلم بالنسبة إلي، وقت شفتا بديت كانت بالنسبة إلي معركة وجود بيني وبين حالي، إما بشارك أو بكون عم نظّر، وكل الحكي اللي كنت احكيه قبل الثورة ما إلو طعمة» يقول أبو محمد، ثم يسرد في حديثه عن الثورة وعن رغبته العارمة في ثورة سورية تقضي على الفوضى والفساد المستشري في البلاد.

عائلته كانت عقبة أمامه بسبب خوفهم عليه. كان يحاول اختلاق قصص للمشاركة في المظاهرات أو لإخفاء المنشورات عن العائلة. جلّ أحلامهم كانت أن ينهي ابنهم الأصغر الجامعة ويهاجر كما فعل إخوته من قبله. هنا لا بدّ لنا من ذكر أنّ أبو محمد المقدسي غادر سورية منذ أشهر قليلة مرغماً.

أبو محمد المقدسي شابّ سوري لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. له أحلامه في أن يستطيع توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في كل

بقاع الأرض، وأن يوعّي الناس في كل مكان بقضية فلسطين، فلا يضيع حقها وإن امتد الزمن بها.

«الإنسان فكرة، بيعيش وبيموت مشانها!» بهذه الجملة ختم أبو محمد المقدسي حديثه معي.

أود أن أذكر قصة راكان، صديق اللجوء في ألمانيا. من شاركني مع أربعة أشخاص آخرين غرفة صغيرة لمدة شهر.

ذات نهار استيقظت في منتصف الليل فرأيت راكان واقفاً يرنو إلى البعيد.

نظر إلى الخارج مطولاً، رأى أضواء مدينة الألعاب المتنقلة التي حطت بالقرب منهم منذ يومين. تذكر طفولته ولعبه بالطين الذي كان يُضرب من أجله، عليه ألا يلوّث ثياب الخروج الوحيدة المتوفرة لديه. الفقر والقرية، لفافات الخبز المدهونة بالماء والسكر، تذكر كل هذا وهو يرى تلك الألعاب التي ما زالت تدور حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل. لم يوقف سيل الذكريات الذي يجتاحه سوى مرور القطار السريع في المسافة الفاصلة بينه وبين تلك الأضواء. تراجع خطوة إلى الوراء وكأن القطار سيصدمه. عادت الحكايات إلى عقله من جديد، ولكن هذه المرة بعيداً عن بلاده الأم، بل كانت ذكريات قاسية، ذكريات السفر والتشرد، التعب واللجوء. استيقظ من أحلامه المرّة عندما نادته الطبيعة وتجمع البول على حافة قضيبه منتظراً الإذن بالنزول، وإلا هدده بالفضيحة التي لم يكن راكان يهتم بها.

توقف أمام المبولة المتسخة وأخرج عضوه. ما الذي دفعه ليفكر بآدم وحواء وهو في موقف كهذا، هل تذكر الإنجاب والمرأة والزوجة، أم تحسر على حياته التي قضى معظمها وحيداً دون شريكة أو حتى دون صديق؟ لكن الأهم من ذلك كلّه تذكّره بأن لهذا العضو وظائف أخرى غير التبول؟

لا أعرف. هي إجابته، إذا ما سألته: أيستحق الخروج من بلادك كل هذا العناء خلال السنوات الثلاث الماضية؟

كيف مرت هذه السنوات كحلم ثقيل لا يحتمل، كان يحس بأن كل يوم يمر عبارة عن سنة كاملة لا أقل، ربما أكثر، لكن عندما كان يتطلع خلفه كان يرى الأيام تركض يكاد لا يلحق بها، بل قد تكون سبقته، فإذا بالشيب قد بدأ يغزو شعره، فها هو ذا الآن يشارف على الأربعين.

ينظر خلفه فيرى اليوم الذي غادر فيه قريته إلى دمشق يبدو وكأنه قد كان بالأمس القريب، ودّع أمه بقبلة طبعها على يديها وكذلك فعل مع والده، كان يوماً حزيناً.

خرج ولم يعد، لم يكن يفكر بالذهاب في طريق واحد لا إياب له.

لا تظنه كذلك عندما تراه، ربما يبدو لك في انطباعك الأول أنه متعجرف بعض الشيء لكن ما إن تنظر إليه وتستشف في وجهه، حتى ترى الطيبة المختبئة خلف قسوة الأيام. أيامٌ وشهور انقضت، سنوات مرت وكأنها دقائق. من القرية إلى دمشق فالخليج ثم القاهرة، عابراً منها إلى الصحراء الليبية ثم إلى الجزائر، عاد إلى دمشق بعد أن مرّ بتركيا. ثم من دمشق إلى تركيا، ومنها إلى اليونان أرض الإغريق، ثم فرنسا و النمسا وأخيراً في ألمانيا حيث هو الآن.

أعود إلى قصتي مع المدن، فتقفز حمص إلى مخيّلتي.

حمص؟! إذاً، هي حمص من جديد. وما الجديد في ذلك؟

أقسم بأن القلم لا يطاوعني على الكتابة! لماذا لا يطاوعك؟

هي لعنة الدموع يا صاحبي لا تفارقني، ولا صورة الشهيد. فكيف أنسى عند باب القيامة أصوات شبابها وهم يغنون: «وحمص العدية بتلالها وبوابها ضحت بالشهدا غنينالها سكابا»؟ وكيف أستطيع أن أمنع دموعي من الانهدار وأنا أراهم يتجمعون في الساحات يرقصون، وقذائف المدافع تمر من فوق رؤوسهم.

ستكتب عن حمص إذاً؟ لا، بل ستكتب هي عني. ستسطر تاريخي القادم بخطوط حمراء عريضة. سيكون بيتي في باب السباع، ووجهتي إلى بابا عمرو، سيمر طريقي نحو السحاب من البياضة. سأرقص في شارع الملعب فرحاً وسأسير في حاراتها إلى ما لا نهاية.

ألم تقل سابقاً بأنك لن تكتب إلا لحماة، وقد سبقتها بقولك بأن درعا هي وطنك القادم، ومدحت اللاذقية مطولاً وكتبت لدير الزور والقامشلي، وكنت دائم التودد لدمشق، وسطرت بعض الخطوط لإدلب؟ ما هذا يا صاحبي إني لا أرى لك مكاناً تقيم فيه، أم لعله مرض المجاملات قد أصابك؟ سألني أحد أصدقائي.

نظرت إلى عينيه مطولاً، ابتسمت وقلت:

ألا تبّت كل يدٍ تفرّقنا! ألم تعلم يا صاحبي أن طفولتي (عمري من

عمر الثورة) كانت في درعا، وأنّ حبل مشيمتي مرتبط بدمشق، وأنّ حماة هي عشقي، وأنّ القامشلي وعامودا ودير الزور والبوكمال وإدلب واللاذقية وبانياس وجبلة والسويداء والجولان هم أجزاء من جسدي، وأنّ حمص عاصمة قلبي؟ أتعلم يا صاح أني سأكتب لكل مدينة كما لو كانت طفلتي؟!

ابتسم صاحبي وغادرني. جلست وحيداً متأملاً فيما قلت، أردت أن يعود صاحبي لأقول له:

يا عاصينا زيد زيد
للكرامة نصر جديد!

أردت أن أكتب عن حمص، فأصف حاراتها ومداخلها، كما يفعل الكتّاب. فأبدأ من ريفها ثم أدخل من باب السباع أو من بابا عمرو، أمرّ بالخالدية لأصل إلى الساعة الجديدة، وأعبر الساعة القديمة وأرى الناس في حي الأرمن، ثم أصف شارع الملعب ومطاعمه ومشجعي نادي الكرامة. وقلت في نفسي: يوماً ما ستُخلد ذكراي ويذكر الناس حمص عن طريقي.

بعد قليل عدت إلى رشدي، وسألت نفسي: ومن أنا لأستطيع تخليد العظمة؟ هي حمص التي ستخلّدني إن كتبت عنها، وهي التي ستحيي البلاد من جديد. هي حمص، عاصمةٌ للثورة كما قيل. وسأزيد عليهم بقولي: حمص، فلتَغَر الشامُ منكِ، فأنتِ الآن عاصمةٌ قلبي.

حمص، عندما هبّت درعا، انتفضت معها وصرخت: يا درعا حنّا معاكي للموت. قامت بانياس واللاذقية، فحماة وجسر الشغور وإدلب والشام والقامشلي ودير الزور وكل البلاد، وكانت حمص دائماً تنتفض من أجل إخوتها. واليوم تنتفض حمص من أجل نفسها.

لا أدري كيف أكتب عن تلك المدينة، وعن أنهار الدماء، أأكتب لكِ

عن عشقي لكِ منذ طفولتي أم أكتب عن الحاضر؟ يا حمص، أحب طرقاتك، وأحب طيبة أهلكِ، أتدرين بأني الآن أبكي عندما أسمع إحدى النكات التي كنّا نقولها عن حمص.

حمص، قد اشتقت إليكِ فأعينيني على الشوق والذكرى، أنجبيني من جديد يا حمص، أريد أن أولد حيّاً.

أسافر بمخيّلتي قليلاً، لأصل إلى ليبيا. وماذا أقول لتلك البلاد التي لم أعرفها قبلاً إلا من خلال ذلك المجنون؟!

أنا آسف يا ليبيا، لأنني لم أرك قبلاً إلا صحراء قاحلة وخيمة!

أنا آسف لأني لم أرى فيكِ إلا بعض الأبنية المتناثرة هنا وهناك!

أنا آسف لأنني لم أعرف علمكِ القديمَ (الجديد) قبل بداية الثورة!

أنا آسف يا ليبيا لأن صورتكِ الموجودة في مخيّلتي هي كلمات رجلٍ مجنون!

أنا آسف لأني لم أرَ وجوه أبنائك قبل السابع عشر من شباط هذا العام. لم أرَ سوى وجه طاغية ضحكنا كثيراً على كلماته، لكننا نسينا أن نبكي على جرائمه!

أنا آسف يا ليبيا! وهل تكفي الكلمات لتعبّر عن أسفي؟!

شكراً يا ليبيا، فقد أحييتِ الأمل من جديد!

شكراً يا ليبيا لأن رجالك أبطال وأرضك منبع البطولة!

شكراً لأننا تذكّرنا أنّ عمر المختار هو ابن هذا التراب!

شكراً لأننا عرفناكِ عروساً!

شكراً مني أنا المواطن السوري دلير يوسف!

أعود إلى واقعي وإلى بدايتي. بداية الثورة. ماذا كنت أقول؟ ولمن سأقول؟ ربما لن أعتب على النظام وأزلامه هنا، فربما كان ما يقومون به هو غريزة حيوانية، فيدافعون عن أنفسهم عند شعورهم بخطر الزوال. ولن أناقش هنا جرائم هذا اللا نظام التي فاقت مقدرات الفرد على التخيّل. ولن أكون هنا مدافعاً عن أي شيء أو معارضاً، رغم أن موقفي واضحٌ وضوح الشمس.

لكنني سأوجه حديثي لمن سُمّي بأبواق السلطة:

أعزائي المدافعين عن السلطة، والمتمسكين بها إلى آخر رمق، أنا لا أعتب عليكم، فالكل قد عرف أنكم مستفيدون من بقاء السلطة بشكل أو بآخر، أو لنقل بأن هذا هو رأيكم، وبما أننا دعاة الديمقراطية، فلن نسلبكم حقكم في التعبير عن رأيكم، لكني أود أن أسأل:

أعزائي، ماذا تقولون لأولادكم مساءً عندما تعودون إلى البيت؟

ماذا تقولون لهم وهم يستنشقون رائحة الدماء المنبعثة من أفواهكم؟

كيف تواجهونهم؟ أيصدّقونكم وأنتم تقولون مؤامرات واندساس؟

كيف ستربّونهم ليكونوا بناة المستقبل؟ كيف سيكونون إخوة لنا في الوطن وأنتم مشاركون في جريمة قتل إخوتهم؟

كيف يقابل ابنك صديقه في المدرسة وأنت كنت قد قتلت والده بكلماتك؟

أرجوكم راجعوا أنفسكم، لا من أجلي ولا من أجل النظام، بل من أجل أولئك المساكين أولادكم! أرجوكم لا تخدعوهم فهم إخوتي رغماً عنكم!

**لأني أخجل من دمائكم... أنعى إليكم نفسي!**

## ملحق

معظم أجزاء هذا النص نُشرت مسبقاً في صحف ومجلات ومواقع إلكترونية مختلفة: «السفير، الحياة، سوريتنا، مدونة بلا اسم، موقع ألف، موقع الجمهورية لدراسات الثورة...» لذا وجب التنبيه.

إنّ العنوان الرئيسي للنص «حكايات من هذا الزمن» هو عنوان مقالة لمعلمي «إلياس خوري» وقد وافق مشكوراً على أن أستعمل العنوان لكتابي هذا.

كما أودّ من القارئ العزيز أن يتأنى في حكمه على ما كتبت، إذ إنني لم أدّع نبوغاً في الكتابة ولا قدرة خارقة على تجسيد الصور، بل هي محاولة مني لتدوين حكايات حدثت في هذا الزمن، عساها تساهم في رفد ما يكتب ويقال عمّا يحدث من حولنا.

النصوص الواردة في هذا الكتاب كتبت في أعوام «2010-2011-2012-2013-2014».

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»، بمساعدة من جمعية «**مبادرة من أجل سورية جديدة**» ـ باريس، الكتب التالية:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.

"إن سألني أحد، لمَ تكتب هذه النصوص؟
لن أعرف أن أجيب.
قــد أقول إنها انفصــامات اليأس والأمل
تصيبني أنــا المنتمي إلى جيــل الثــورة
والغياب. ثم أستفيض في الحديث وأقول:
لأن اليــأس خيــانة....."
النصــوص التي تتضمنها هذه الشــهادة،
ورغم كل الحزن الذي يعتصرها، صرخة
أمل يطلقها شــاب يعشق الحياة، ويؤمن
بأن للكلمات "صوتاً يقض مضجع الظالم"
وبأن "الحرية ليست مصادفة".

بيت المواطن
للنشر والتوزيع